همسة فى أذن المجتهدين

رأيي صواب يحتمل الخطأ . .
ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب

انتهينا فى الفصل السابق عند آية الوضوء حين يقول الحق فيها : ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ ﴾ بدون تحديد للوجه لأن الوجه لا اختلاف عند العرب فى تحديده . وقلنا : إنه قال : ﴿ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ ﴾ لأن الأيدي تطلق إطلاقات متعددة ، والله يريدها محكمة محددة بواحد من هذه الإطلاقات ، وهو : ﴿ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ ﴾ وحين يريد الله تحديد الحكم لا يترك مجالاً لاجتهاد مجتهد .

وبعد ذلك قلنا : ثم قال : ﴿ وَٱمْسَحُوا۟ ﴾ نقل المسألة من غسل لمسح ، وقلنا : إن الغسل فيه إراقة الماء ليتقاطر ، والمسح فيه فقط مس الماء للجهة .

وقلنا : لكنه لم يقل : « امسحوا رؤوسكم » كما قال : ﴿ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ ﴾ .

ولم يقل : « إلى » بغاية تحدد كالربع أو كالبعض أو كالكل ، وإنما قال : ﴿ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ ﴾ وهنا « الباء » فى اللغة لها إطلاقات متعددة تحتمل وجوهاً كثيرة .

وما دام الله عدل عن الأسلوب الذى قاله فى : ﴿ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ ﴾ ولم يقل : « امسحوا رؤوسكم » مثلها ، ولم يقل أيضاً « إلى المرافق » ليحدد ؛ فقد جاء بالباء والباء محتملة لمعان متعددة .

إذن . . من الله حين جاء فى أسلوبه بالباء إلى أن كل ما تؤديه الباء يمكن أن يوجد فى إطلاقات الاجتهاد على هذا الموضوع .

لذلك قال قوم : ﴿ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ ﴾ لأنها الآلة والاستعانة ، وتكون : الرؤوس كلها ، وقال قوم : إن الباء للتبعيض ، فتكون : بعض الرؤوس .

وقالوا : ﴿ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ ﴾ والمسح لا يكون إلا باليد ، واليد الأوضاع الممسوح بها ، وهي قدر الربع .

إذن فكل مجتهد أخذ من نقطة « الباء » كل ما يريده .

والله لا يريد لوناً خاصا يحكم به الأمر ، إلى الإباحة إلى الاجتهاد .

فإذا ما ذهب مجتهد إلى أنها الكل ، ومجتهد آخر إلى أنها الربع ، ومجتهد ثالث إلى أنها البعض ولو شعرة .

والآفة توجد من أننا لم نحترم تعميم الله بوجود « الباء » لكل أمر اجتهد فيه .

ولو احترمناه لاحترم الذى قال الكل واحترم ، من قال البعض ، واحترم من قال الربع ؛ لأن الباء احتملت ما قال واحتملت ما قاله الآخر ، وهي فى نطاق الباء شائعة ، ولكن الآفة أن الذى يقول بهذا يحاول أن يجعل فهمه هو الأصل .

يا أخي لو كانت المسألة يراد منها أصل لا نتزحزح عنه لكان صاحب التشريع أولى بأن يحدد هذا الأصل .

ولكنه حين لم يحدده احترم وجهات النظر لأنها إن جاءت على أى وجه فهي مقبولة عنده .

ومادامت مقبولة عند المشرع ؛ فليس لك أن تلزم المشرع بفهمك أنت .

إذن آفتنا أن بعض الناس يرى أن ما اجتهد إليه هو الحق ، وأن ما

وصل إلى غيره من سواه هو الباطل ، وهذا يمثل وجهة نظر الإسلام ، وهذا لا يمثل وجهة نظر الإسلام ، ومن هنا جاء الخبط والخلط .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يدع المسألة في نص نفهمه ، ولكنه جاء في واقع تطبيقي ليدلنا على أن أمر المشرع إن كان محكماً فلا مجال لاجتهاد أحد ، وإن كان محتملاً فالمشرع نفسه شرع الاحتمال . ومادام شرع الاحتمال ؛ نشأ عن هذا قضية أصولية : هل الحق واحد صادفه واحد من المجتهدين ، وأخطأ الباقي ، أم الحق متعدد ؟

نقول في المحكم : الحق واحد .

وفي المتشابه الذي يحتمل : الحق متعدد ، والحق ما وصل إليه المجتهد ما دام الله جاء بنص غير محكم يحتمل الاجتهاد .

الرسول صلى الله عليه وسلم جاء في مسألة « غزوة الأحزاب » ولم يكد القوم يستريحون من غزوة الأحزاب حتى أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما أوحى الله به بواسطة جبريل إن الملائكة لم تخلع لباس الحرب بعد ، وأنت لابد أن تذهب إلى يهود بني قريظة لتؤدبهم ، في وقت لم يكونوا قد ارتاحوا ، بعد هذا العنت الطويل والعناء المستمر مدة طويلة في حرب الأحزاب أو حرب الخندق فقال صلوات الله تعالى عليه وسلامه : « من كان يؤمن بالله ورسوله فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة » [1] .

---

(١) رواه البخاري [٩٤٦] ، ومسلم [٦٩/١٧٧٠] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما ، وذكر الهيثمي في مجمع الزوائد [٦/ ١٤٠] عن كعب بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع من طلب الأحزاب رجع فنزع لأمته واغتسل واستجمر . زاد دحيم في حديثه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فنزل جبريل عليه السلام فقال : عذيرك من محارب ألا أراك قد وضعت اللأمة وما وضعناها بعد » . فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم فزعاً فعزم على الناس ألا يصلوا العصر إلا في بني قريظة فليسوا السلاح وخرجوا فلم يأتوا بني قريظة حتى غربت الشمس واختصم الناس في صلاة العصر فقال بعضهم : صلوا فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يرد أن تتركوا الصلاة ، وقال بعضهم : عزم علينا أن لا نصلي حتى نأتي بني قريظة وإنما نحن في عزيمة رسول الله=

يجب أن يتنبه المجتهدون فى الإسلام ، والتابعون للإسلام إلى مثل هذه القضايا حتى لا تكفر طائفة بفهمها طائفة أخرى بفهمها ، ما دام الفهمان متواردان على نص يحتمل الفهم ، ومن إله قادر على أن يمنع هذا الفهم بنص محكم .

إذن . . الصحابة رضوان الله عليهم اختلفوا فى الطريق .

فواحد قال : إن المغرب يوشك أن يأتى ، والشمس توشك أن تغيب ، والعصر لم نصله ، لازم أن نصليه قبلما تغيب الشمس .

وقول آخر قالوا : لا ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « فلا يصلين العصر إلا فى بني قريظة » فلم يصلوا .

قوم صلوا ، وقوم لم يصلوا .

والحمد لله أنهم صائرون إلى المشرع ، فذهبوا إلى المشرع فأقر هذا وأقر هذا .

إقراره لهذا وإقراره لهذا كان يجب أن يكون دستورا للفاهمين عن الله ، دستورا للفقهاء الذين يستنبطون الأحكام ، ويعلمون : أن الله تعالى حين يترك نصًا محتملاً ، أو رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يترك نصًا محتملاً للفهم ، يجب أن يحترم فيه كل فريق رأي الفريق الآخر .

والاحترام كيف يكون ؟!

يعتبره على الأقل مساوٍ لفهمه .

ولذلك بالأدب قال لك : إن ما وصل إليه المجتهدون فى مثل هذا

= صلى الله عليه وسلم فليس علينا إثم فصلت طائفة العصر إيمانا واحتسابا وطائفة لم يصلوا حتى نزلوا بني قريظة بعد ما غربت الشمس فصلوها إيمانا واحتسابا فلم يعنف رسول الله صلى الله عليه وسلم واحدة من الطائفتين . وقال : رواه الطبراني [١٩/ ٧٩/ ١٦٠] ورجاله رجال الصحيح غير ابن أبى الهذيل وهو ثقة .

الأمر يقول : أنا أصبت الحق وقد يحتمل الخطأ ، أى : هو صواب يحتمل الخطأ ، ورأي خصمي خطأ يحتمل الصواب . ويربح نفسه .

انظر إلى التقريب ؛ أيضاً احترمت ذاتيتي فى الاستنباط .

احترمت المرجح لي فى الاستنباط .

لكنني لم أتهم سواى .

حينما ذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ الرسول أقر هذا وأقر هذا ، فى أمر كان من الممكن أن يُتدارك ، ولو أن الحكم من الرسول صلى الله عليه وسلم كان على أمر لازم محكم لابد أن يوجد بحزم وبت .

كان يقدر أن يقول للذين صلوا : مخالفة انتهوا ، والذين لم يصلوا يقول لهم : اقضوا . إذن أمر متدارك .

فالأمر المتدارك لم يحدث من الرسول صلى الله عليه وسلم ، مما يدل على أنه سواء مع الأمر الآخر .

وما دام سواء مع الأمر الآخر إذن المشرع قال نصاً يحتمل هذا ويحتمل هذا .

وإذا أردنا أن نقعد هذه القاعدة ، بما يوضحها توضيحاً مقنعا ، نقول له : تعال يا أخى : الصلاة حدث ، والحدث له زمان وله مكان . لا يوجد الزمان والمكان إلا إن وجد الحدث ، وإذا وجد الحدث فلازم يكون له زمان ومكان . الصلاة حدث يطلب منا الإيمان أن نفعلها ، له مكان وله زمان . والرسول صلى الله عليه وسلم حين قال قوله ، حدد ماذا ؟

حدد الحدث .

ثم قال : « إلا فى بني قريظة » فيكون قد حدد المكان .

متى نذهب إلى بني قريظة ؟

لم يقل لنا . الزمان .

فهو قد حدد المكان وترك الزمان .

فالذي رأى أن يصلي قبل أن تغيب الشمس ويخرج وقت العصر قال : إن الحدث له زمان فاحترم الزمان وقال : أنا أصليه في زمانه في أي مكان وجد ذلك الزمان ، لأن الحاكم فيه الزمن .

واحد قال لك : لكن الرسول صلى الله عليه وسلم جاء في ظرف للحدث وهو المكان قال : « إلا في بني قريظة » فيكون قد حدد المكان . فأصليه في المكان في أي زمن .

فواحد قال : أصلي العصر في الزمن في أي مكان ، والثاني قال : أصليه في المكان في أي زمن .

إذن . . احترم الرسول صلى الله عليه وسلم هذا واحترم هذا ؛ لأن كل واحد من الطرفين نظر إلى ظرف من ظروف الحدث الزمان والمكان .

كل الأحكام الاجتهادية التي تركها التشريع لاجتهادات البشر معناها : إذن من الله أن كل ما وصل إليه الاجتهاد يقبله الله ويعتبره حقا في هذه المسألة .

ولكن المجتهدين ، أو أتباع المجتهدين ، أو المريدين للسيطرة يجعلون فهمهم هو الأصل ، فكأنهم نقلوا الأحكام من المشرع إلى أنفسهم إحكاماً في الفهم .

نقول له : لا ، أنت ليس لك حق ، لأنك لست مشرعاً ، أنت فاهم للتشريع ، ومادمت أنت فاهما للتشريع فلا تحكم لي أنت الحكم ، هذا الحكم لو أراده الله بتا ؛ لبينه بتاً ولم يُختلف فيه : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب : ٣٦] .

إذن : الشيء الذي ينفذ منه خصوم الإسلام هو ما يفعله بعض علماء الإسلام أو بعض الأتباع لعلماء الإسلام حين يرون في اجتهاداتهم التي أباح الله فيها أن نجتهد في النص أصلا لا يجب أن يترك ، وأن فهمهم هو الحق ، وأن ما عداه هو الباطل . ومن هنا نشأت النكبة على المسلمين في جميع بقاع الأرض .

ولذلك تجد إسلام أمة منتقد من إسلام أمة أخرى .

إسلام في دولة منتقد من إسلام دولة أخرى . لماذا ؟

لأنهم أرادوا أن يجعلوا من فهمهم في الأمور المجتهد فيها نصًا محكما ومن خالفه فهو مبطل!

لم ينظروا إلى ثمار ذلك فيما يجدونه من الهجوم علينا فالإسلام لم يعد دين تجميع وإنما أصبح الإسلام دين تفريق .

ونحن في البلد الواحد نشاهد ذلك .

الآن نجد عندنا في كل حي مذهب ، وفي كل مسجد طائفة .

ولو نظرت إلى إسلام هؤلاء لوجدته بعيدا عن إسلام هؤلاء . لماذا ؟

لأنهم جعلوا لشيوخهم فهما ، فمن لم يجئ على فهمهم فيه فهو خارج عن الإسلام لا عليهم! ويجب أن ينظروا إلى تبعات هذه الأشياء الآن .

هذه التبعات التي سنشقى بها طويلاً ، ونشقى بها ممن ؟

من خصوم الإسلام ، ولكن من أعطاهم الحبل ليدخلوا علينا لنشنق به أنفسنا ؟!

وأيضاً فمن الأشياء التي حاول أساتذة الاستشراق أن يضعوها لتكون نواة للدخول على هدم الإسلام في نفوس المسلمين : نظرة بعض العلماء إلى القضايا الكونية . وهي القضايا التي تحدث في الكون .

والقضايا التي تحدث في الكون : أمور متعددة ، أمور تحدث في ناموس الكون نفسه ، وفي استنباط شيء من هذه النواميس .

نواميس الكون تؤدي مهمتها في الكون فهمناها أو لم نفهمها .

ولكن الله قد ييسر لنا بعض الفهم لناموس لنستفيد منه في ناموس آخر .

الإسلام الصحيح
في مساجد الأوقاف.. أم الأهلية ؟!

فقد انتهينا فى الفصل السابق إلى أن المسلمين أنفسهم هم الذين هيأوا الميادين لخصوم الإسلام ليغزوهم فيها ، وهم الذين باختلافاتهم التى لا مبرر لها ولا فقه فيها هم الذين أعطوهم هذه الأسلحة ليهاجموا بها الإسلام .

وإذا ما نظرنا إلى كثير من هذه القضايا وجدنا أن خصوم الإسلام عيونهم مفتوحة ، وآذانهم مصغية ، وملاحظاتهم دقيقة لكل ما يحدث فى بلاد الإسلام .

سواء كانت البلاد بلاد تطبيق للإسلام ، أو كانت بلاد تحقيق للإسلام .

وسنعطي صفحات من هذه الصفحات ، مكتوب فيها عن مصر ، تقول بالنص :

○ « **نريد أن نسأل المسلمين فى مصر ، وفيها الأزهر الذى يدعي أنه الحريص على الإسلام والمحافظ عليه : أى الإسلام هو الخير ، وهو الحق ؟**

هل هو الإسلام الذى فى المساجد التى تديرها وزارة الأوقاف . . أم فى المساجد الأهلية التى هى منتشرة فى سائر القطر ويجوب فيها أناس يهاجمون الإسلام فى المساجد الأوقافية » ؟

وهم معذورون فى ذلك ؛ لأن مصر صحيح هى بلد تحقيق الإسلام .

وتحقيق الإسلام معناه : توضيح قضاياه توضيحا لا لبس فيه .

ومصر وإن لم تكن - على حد زعم البعض - البلد لتطبيق الإسلام ، فلا يجادل أحد في أنها البلد لتحقيق الإسلام .

فهم لا يتكلمون عن تطبيق الإسلام . . لأنهم يقولون إن جمهرة المسلمين في مصر تحاول أن تطبق الإسلام إذن فهم يحاكمون مصر ، لا من أجل تطبيق الإسلام ، ولكن من أجل تحقيق الإسلام .

ويسألون : أي إسلام هذه المساجد هو الحق عندكم وعند الله ؟!

هل المساجد التي ينادى فيها بعد الأذان بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أم المساجد الأخرى التي تقول في هذه إنها مخالفة للإسلام ، وتحمل عليها حملة عنيفة ؟!

نقول : هم محقون في هذا الأخذ ؛ لأن كثيرا من الذين يؤذنون يجهلون موقف الدين الحق من هذه المسألة ، ويعتبرون المسألة مسألة أدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والدين ليس أدباً فقط . . وإنما هو طاعة ، يجب أن تطيع رسول الله فيما شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا تتجمل أنت على رسول الله بما لم يرضه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الأذان أقره رسول الله صلى الله عليه وسلم على نحو وصيغة معينة جاءت في كتب الحديث والفقه .

صحيح أنه قال : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثلما يقول ثم صلوا علي »[1] .

---

(١) روى مسلم [٣٨٤/١١] عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما ؛ أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول . ثم صلوا عليَّ فإنه من صلى عليَّ صلاة صلى الله عليه بها عشرا . ثم سلوا الله لي الوسيلة . فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله . وأرجو أن أكون أنا هو . فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة » .

فلنا أن نردد ما قاله المؤذن فإذا ما قال : « الله أكبر » نقول : الله أكبر ، وإذا قال : « أشهد أن لا إله إلا الله » نقول : أشهد أن لا إله إلا الله . أى : نردد الأذان خلف المؤذن ، وهذا معناه : أن نقول مثل ما يقول ؛ ثم إذا انتهى المؤذن من رفع الأذان نصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ، لقوله : « ثم صلوا على » .

فالذين التزموا الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم صلوا عليه وجعلوا المؤذن يصلي على النبي بعد الأذان .

ولكن : أيصلي بلهجة الأذان الجاهرة ، أم يصلي فى سره ؟!

لا . . يصلى فى سره حتى لا يدخل على الأذان ما ليس منه .

لأن الدين دين طاعة ، وليس دين أدب فقط .

إذن . . حين يأخذون هذا يجب أن نحمد لهم أنهم نبهونا على شيء وجوده لم يكن ضرورة فى الدين ، ولكن الوجود أدخل التشكك فى نفوس غير المتدينين ليهجموا منه على الدين .

فقالوا : أى الإسلام خير ؟ . هذا يكفر هذا ، وهذا يقول هذا باطل ، وذاك يقول هذا باطل ؟

إذن . . فما أحرانا أن نتجنب مثل هذه الأشياء ، نحن نحب رسول الله ، ونقدر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونعظم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونزداد منزلة عند الله حين نصلي عليه[1] **ولكن لكل مقام مقاله التشريعي فما دام ذلك لم يرد فى الأذان فليصل السامع والمؤذن فى سره على رسول الله صلى الله عليه وسلم .**

---

(١) روى النسائى فى المجتبى [٣/ ٥٠/ ١٢٩٧] واللفظ له ، وأحمد فى المسند [٣/ ١٠٢] عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه عشر صلوات وحطت عنه عشر خطيئات ورفعت له عشر درجات . وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط : حديث صحيح ، وهذا إسناد حسن . وقال الألبانى : صحيح .

وبذلك نقطع على مُريدى الكيد للإسلام منفذًا يدخلون منه على الإسلام مما يُغضب منا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إذن . . توجد أشياء كثيرة الأدب فيها شيء والطاعة فيها شيء .

كذلك يقولون : قولوا لنا : أتقولون أيها المسلمون « اللهم صَلِّ على محمد » أو « اللهم صلى على سيدنا محمد » ؟ مثلاً . أو تقولون : « نشهد أن لا إله إلا الله وأن سيدنا محمدا رسول الله » أو « أن محمدا رسول الله » ؟

هذا فيه شِقان :

الشق الأول : « نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله » ليس فيها مسار خلاف ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « صَلوا كما رأيتمونى أصلى [1] » وهو صلى الله عليه وسلم حين كان يصلى يقول فى تَشَهُّده : « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله » . إن أردنا الطاعة فلنفعل هذا .

ولكن الناس ينفعلون عند ذكر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بانفعال الحب وانفعال التقدير ، فيستنكف الواحد منهم أن يأتى باسم رسول الله صلى الله عليه وسلم بدون أن يقدم له بسيدنا رسول الله ، هم مشكورون على هذا ولكن -كما قلنا - الأدب شيء والطاعة شيء آخر .

فالطاعة : كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » [2] .

ولكن الذين وقفوا ضد هذه المسألة ليحطموا من يقولها حاولوا أن يحتجوا لذلك ، وما كان أغناهم أن يحتجوا لأن رسول الله لم يقل : « أشهد أن لا إله إلا الله وأن سيدنا محمداً رسول الله » لم يقل على نفسه

---

(١) جزء من حديث رواه البخارى [٦٣١] عن مالك بن الحويرث رضي الله تعالى عنه .

(٢) جزء من حديث سبق تخريجه .

هكذا ، ونحن نُصلى كما رأيناه يُصلى ، فما كان أغناهم عن التماسهم دليلاً للمنع . كفى دليلاً للمنع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « صلوا كما رأيتمونى أُصلى » وقد صلى هكذا .

وهو صلى الله عليه وسلم مطلوب منه أيضًا فى التشهد الثانى أن يصلى على النبى ، لم يقل : « اللّهم صلى على سيدنا محمد » ما دمنا سنصلى مثله . إذن . . ليس فى ذلك قدح .

أرأيت لو أنك قرأت القرآن كله فى ركوعك ولم تقل : « سبحان ربى العظيم » أكنت قد أديت الصلاة كما أداها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟!

إنك لو قرأت القرآن كله فى الركوع لا ينفع ، كذلك هل لو قرأت مكان التحيات كل القرآن ينفع ؟ بالطبع لا ينفع . إذن فالطاعة شىء والأدب شىء آخر .

ومن يدريك أن الله يأتى لنا بأشياء ؛ الأدب يتطلب منا وضعا ، ولكن الله بأمره يريد أن يُخرج طبعنا عن هذا الأدب ، يُعطينا عبودية ، عبودية التزام .

إذن . . فما أغنانا أن ندخل فى مثل هذه المتاهات . **وعلى المؤذنين الذين يأتون بعد الأذان ليجهروا بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلوا فى نفوسهم سرا ، وأن يصلى المستمعون سرا .**

وعلى الذين يؤدون التحيات أن يؤدوها كما أداها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبذلك نستغنى عن أنهم يقولون : قال الرسول : « لا تسيدونى فى الصلاة » .

نقول له : يا أخى « لا تسيدونى فى الصلاة » [1] لا يقولها رسول الله .

---

(١) قال العجلوني فى كشف الخفاء [١٢٩٢- ٣٠١٨] قال فى المقاصد : وقال الناجي في-

أنت جئت بدليل لكن بطلان الدليل لا يؤدى إلى بطلان المدلول ، نحن لا نناقشك فى أننا نمنع هذا ، لكن لا تأتى بهذا الدليل ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم عربى وقال : أنا أفصح العرب غير أنى من قريش[1] . وقريش تعطيك فصاحة أكثر .

فلو أنها كانت من رسول الله لقال : « لا تُسوّدونى فى الصلاة » لأن « ساد يسود واوية » فلا تكذب على رسول الله لتؤيد منطقك ما دام المنطق نفسه مؤيد من رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : « صلوا كما رأيتمونى أصلى »[2] .

لكن هذه تُورث شقاقا ، تُورث فى كثير من البلاد عنادا ، تورث فى كثير من البلاد عراكا ، وعراك مسجل علينا .

○ **ومما قالوه أيضا : « إن كثيرا من المساجد يُكفرون من يصلى فى مسجد ألحق بقبر من القبور » . وهذا أيضا واقع .**

ولذلك كان يجب أننا نقف لنفهم هذه المسألة ، يتخذون من قول النبى

= أوائل مولده المسمى بكنز العفاة : وأما النقل عن سيد الورى لا تسوّدوني فى الصلاة فكذب مولد مفترى والعوام مع إيرادهم له يلحنون فيه أيضا فيقولون : لا تسيدوني بالياء ، وإنما اللفظة بالواو .

(١) أورده العجلوني فى كشف الخفاء [٦٠٩] بلفظ : « أنا أفصح العرب بيد أني من قريش » وقال فى اللآلئ : معناه صحيح ، ولكن لا أصل له كما قال ابن كثير وغيره من الحفاظ ، وأورده أصحاب الغريب ، ولا يعرف له إسناد ، ورواه ابن سعد عن يحيى بن يزيد السعدي مرسلا بلفظ : أنا أعربكم أنا من قريش ، ولساني لسان سعد بن بكر .
ورواه الطبراني عن أبى سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه بلفظ : أنا أعرب العرب ، ولدت فى بني سعد ، فأنى يأتيني اللحن ؟ كذا نقله فى مناهل الصفا بتخريج أحاديث الشفا للجلال السيوطى ، ثم قال فيه : والعجب من المحلى حيث ذكره فى شرح جمع الجوامع من غير بيان حاله ، وكذا من شيخ الإسلام زكريا حيث ذكره فى شرح الجزرية ، ومثله : أنا أفصح العرب بيد أني من قريش ، أورده أصحاب الغرائب ولا يعلم من أخرجه ولا أسنده انتهى .

(٢) سبق تخريجه .

عليه الصلاة والسلام : « لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبياتهم مساجد »[1] هذا هو دليلهم .

---

(١) روى البخارى [٤٣٥] ومسلم [٥٣١/ ٢٢] عن عائشة وعبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما قالا : لما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم ، طفق يطرح خميصة له على وجهه ، فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه ، فقال وهو كذلك : « لعنة الله على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » . يحذر ما صنعوا .

قوله : « نزل » قال النووى : هكذا ضبطناه نزل بضم النون وكسر الزاى : وفى أكثر الأصول نزلت بفتح الحروف الثلاثة وبتاء التأنيث الساكنة . أى : لما حضرت المنية والوفاة .

وأما الأول فمعناه نزل ملك الموت والملائكة الكرام .

« طفق » يقال : طفق ، بكسر الفاء وفتحها ، أى جعل . والكسر أفصح وأشهر ، وبه جاء القرآن . يقال : طفق يفعل كذا ، كقولك أخذ يفعل كذا . ويستعمل فى الإيجاب دون النفى .

« خميصة » الخميصة : كساء له أعلام .

وفي صحيح البخارى ، أبواب المساجد ، باب : هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ، ويتخذ مكانها مساجد . لقول النبي صلى الله عليه وسلم : « لعن الله اليهود ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .

وما يكره من الصلاة فى القبور . ورأى عمر أنس بن مالك رضي الله تعالى عنهما يصلي عند قبر ، فقال : القبر القبر ، ولم يأمره بالإعادة .

قال الحافظ فى الفتح : وأما قوله : « لقول النبي صلى الله عليه وسلم . . الخ » فوجه التعليل أن الوعيد على ذلك يتناول من اتخذ قبورهم مساجد تعظيما ومغالاة كما صنع أهل الجاهلية وجرهم ذلك إلى عبادتهم ، ويتناول من اتخذ أمكنة قبورهم مساجد بأن تنبش وترمى عظامهم ، فهذا يختص بالأنبياء ويلتحق بهم أتباعهم ، وأما الكفرة فإنه لا حرج فى نبش قبورهم ، إذ لا حرج فى إهانتهم . ولا يلزم من اتخاذ المساجد فى أمكنتها تعظيم ، فعرف بذلك أن لا تعارض بين فعله صلى الله عليه وسلم فى نبش قبور المشركين واتخاذ مسجده مكانها وبين لعنه صلى الله عليه وسلم من اتخذ قبور الأنبياء مساجد لما تبين من الفرق .

والمتن الذى أشار إليه وصله فى باب الوفاة فى أواخر المغازي من طريق هلال عن عروة عن عائشة بهذا اللفظ وفيه قصة ، ووصله فى الجنائز من طريق أخرى عن هلال وزاد فيه : « والنصارى » ، وذكره فى عدة مواضع من طريق أخرى بالزيادة .

قوله : « وما يكره من الصلاة فى القبور » يتناول ما إذا وقعت الصلاة على القبر أو إلى القبر أو بين القبرين . وفى ذلك حديث رواه مسلم [٩٧٢/ ٩٧] من طريق أبى مرثد الغنوي=

نقول : يا سيدى ليس هذا القبر متخذ مسجدا . لأن ما هو القبر ؟

القبر هو المكان الذى قُبر فيه الميت ، مضجع الميت . هذا هو القبر . هل اتخذ واحدٌ منا القبر مسجدا ؟! لم يتخذه . وإنما جعل القبر إن وجد قبر أُلحق به مسجد حوله شيء نسميه مقصورة ، كلمة « مقصورة » هذه تعنى : محبوس على القبرية لا يتجاوزها إلى شيء آخر ، وربما جعلوها سياجات من خشب وسياجات من حديد ، ويصير عدد من السياجات حول القبر حتى لا يتخذه أحد مسجدا .

إذن . . كونه مقصورًا هذا يمنع ، ولكن هل اشترط أحد أن نصلى فى المساجد التى فيها قبور ؟! لم يشترط .

فما أغنانا عن أننا نوصل القبور بالمساجد ، ما أغنانا عن أننا نجعل القبر نفسه ، أو المقام الذى فيه القبر مسجدا ، مادام الشرع لم يأمر به .

وبعد ذلك يورث خلافا مع الغير . . لماذا لا نسد هذه المسألة ؟! وينتهى الأمر .

إذن . . الذى يريد دينه ويريد أن يحميه لا يجعل فيه ثغرة لينفذ منها أحد . ذلك ما يمكن أن نقوله للمانع وللمعارض ، نتكلم مع هذا ونتكلم مع هذا .

نقول له : يا سيدى لا ضرورة ، سد هذا .

= مرفوعا : « لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها أو عليها » .

قلت أى : ابن حجر : وليس هو على شرط البخارى فأشار إليه فى الترجمة ، وأورد معه أثر عمر الدال على أن النهي عن ذلك لا يقتضي فساد الصلاة ، والأثر المذكور عن عمر رويناه موصولا فى كتاب الصلاة لأبي نعيم شيخ البخارى ولفظه : « بينما أنس يصلي إلى قبر ناداه عمر : القبر القبر ، فظن أنه يعني القمر ، فلما رأى أنه يعني القبر جاز القبر وصلى » وله طرق أخرى بينتها فى « تغليق التعليق » منها من طريق حميد عن أنس نحوه وزاد فيه : « فقال بعض من يليني إنما يعني القبر فتنحيت عنه » وقوله : « القبر القبر » بالنصب فيهما على التحذير ، وقوله : « ولم يأمره بالإعادة » استنبطه من تمادي أنس على الصلاة ولو كان ذلك يقتضي فسادها لقطعها .

يقولون لك : يصلون إلى القبر . إذا أقنعتهم بأنهم لا يجعلون القبر مسجدا ، يقولون لك يصلون فى القبر .

نقول له : يا سيدى إنهم يجعلون القبر مرة وراءهم ومرة على يمينهم ومرة على شمالهم ومرة - صحيح - أمامهم ، لكن الأمامية ليست ملحوظة ، بدليل أن واحدا يصلى والقبر خلفه .

ولهم فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة ؛ لأنه يوجد أناس يصلون فى الروضة ، وهذه الروضة يكون القبر الشريف وقبر سيدنا أبو بكر وقبر سيدنا عمر على اليسار ، ويوجد أناس يصلون فى المكان الذى يسمونه « مهبط الوحى » ويكون قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبر سيدنا أبى بكر على اليمين . وناس يصلوا أمام المواجهة ، ويكون القبر خلفهم . وناس يصلون فى الصُّفة ، ويكون القبر أمامهم .

ومَرَّ ذلك على علماء المسلمين من لدن مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ومات صحابته ، ولم ينكر أحد من علماء المسلمين مثل هذا الموقف .

فإن قيل : ذلك خاص بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نقول لهم : وفيه أبو بكر وفيه عمر رضي الله تعالى عنه .

إذن . . المسائل الخلافية كان يجب أن نأخذها فيما بيننا ، لماذا ؟ لأن آثارها ليست جسيمة فقط فيما بيننا ، بل آثارها عند الخارجين .

أتعتقدون أن مسألة حدثت لم يمض عليها شهر أو شهر ونصف فى صُحف مصر ، وآثاروها فى كتبهم ، مما يدل على أن الضالعين فى هذه الحركة أُناس أيضًا من خصوم الإسلام فى مصر من الذين يكتبون الوقائع ، وهذا كلام مُؤيد .

إنهم أثاروا الضجة التى حدثت حول الاستثمار وحول البنوك الربوية ، وحول العلماء الذين قالوا بحلها ، وحول العلماء الذين قالوا بتحريمها ،

وقالوا : أى الرأيين هو الإسلام ؟ هؤلاء علماء ، وهؤلاء علماء!!

فما كان أغنانا عن أن نعطى خصوم الإسلام من علماء المسلمين أسلحة يتهجمون بها على الإسلام ، وما كان أحرانا أن نَدَع ما شُبِّه ؛ فإن الحلال بيِّن والحرام بيِّن[1] .

ما نقول لفريق من هؤلاء الذين قالوا بأن الربا فى بعض البنوك حلال مُحتجين بما احتجوا به ، لا نريد أن نناقشهم فى هذه المسألة بل نقول لهم : أوَ ذلك هو رأى العلماء بإجماع ؟! يقولون : لا .

نقول لهم : وما رأى بقية العلماء دونكم أنتم المعدودون على الأصابع ؟

---

(١) روى البخارى [٥٢] ومسلم [١٥٩٩/ ١٠٧] عن النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الحلال بيِّن والحرام بيِّن ، وبين ذلك أمور مشتبهات . فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام ، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه » .

وروى الترمذى [٢٥١٨] والنسائى فى المجتبى [٨/ ٣٢٧/ ٥٧١١] عن الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » . وقال الألبانى : صحيح .

وفي المسند للإمام أحمد [٤/ ٢٢٨] عن وابصة بن معبد رضي الله تعالى عنه قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أريد ألا أدع شيئا من البر والإثم إلا سألته عنه ، وإذا عنده جمع فذهبت أتخطى الناس فقالوا : إليك يا وابصة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إليك يا وابصة .

فقلت : أنا وابصة دعوني أدنو منه فإنه من أحب الناس إلي أن أدنو منه . فقال لى : ادن يا وابصة ادن يا وابصة . فدنوت منه حتى مست ركبتي ركبته ، فقال : يا وابصة أخبرك ما جئت تسألني عنه أو تسألنى ؟ فقلت : يا رسول الله فأخبرنى . جئت تسألني عن البر والإثم ؟ قلت : نعم ، فجمع أصابعه الثلاث فجعل ينكت بها فى صدري ويقول : يا وابصة استفت نفسك البر ما اطمأن إليه القلب واطمأنت إليه النفس ، والإثم ما حاك فى القلب وتردد فى الصدر وإن أفتاك الناس . قال سفيان : وأفتوك . وقال الأرناؤوط : إسناده ضعيف جدا الزبير أبو عبد السلام ذكر الحافظ فى « التعجيل » . ورواه الطبراني فى المعجم الكبير [٢٢/ ١٤٨/ ٤٠٣] ، وذكره الهيثمي فى مجمع الزوائد [١٠/ ٢٩٧] وقال : رواه الطبراني وأحمد باختصار عنه ، وأحد رجال إسنادي الطبراني ثقات .

يقولون : بالحرمة .

فما دام كثير من العلماء أو جمهرة من العلماء قالت بالحرمة ، وبعضكم قال بالحِلّ ، فعلى الأقل لن ننسخ رأيكم برأى الجمهور أو برأى الجماعة ، بل سنحترمه ، ونجعل أنت تمثل وجهة نظر وهم يمثلون وجهة نظر .

إذن . . ليس هناك وجهة نظر أولى من وجهة نظر .

وهل هذا يدخل الأمر فى المشتبه أو لا يُدخله ؟ إنه يدخله فى المشتبه . والرسول صلى الله عليه وسلم حكم فى هذه القضية ، كأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يحسم قضايا الخلاف . وقضايا الخلاف دائما هى مثار الفتنة .

الاستبراء للدين والعرض

انتهينا فى الفصل السابق إلى أن المسلمين أنفسهم - بل أقول العلماء الذين يُشرفون على تحقيق منهج الإسلام - يُعطون بعض الأسلحة لخصوم الإسلام لينفذوا منها إلى هدم الإسلام .

وقلنا : إن بعض هذه الأشياء التى حدثت أخيرا فى مصر منذ شهرين أو شهر ونصف قد وجدت عندهم ، مما يدل على أن لهؤلاء عيونا ، وهؤلاء يجدون فى مصر فئة ضالعة تنقل لهم الأحداث كما تحدث فى مصر .

ومن هذه الأحداث ما أثير أخيرا فى الصحافة من ضجة حول تحريم بعض صُور الربا وتحليل البعض الآخر له .

وقلنا : إنه يجب على علماء المسلمين أن يتنبهوا جيدا إلى أن خلاف المسلمين للإسلام يؤثر فى الإسلام ، فما بالك إذا كان الخلاف واقعا من علماء الإسلام الذين هم المهيمنون على تطبيق الإسلام ؟! أظن أن ذلك السلاح يكون أقوى ، ليقول واحد منهم : أرونا أى الرأيين من آراء هؤلاء العلماء أو هؤلاء العلماء هو الإسلام .

فنقول للذين أثاروا هذه الضجة : إنما نحترم رأيكم جدلا ، ونحترم اجتهادكم ، ونحترم أنكم أردتم كما تقولون : أن تعيشوا العصر ، وإن كنا ننكر هذه العبارة .

لا يصح لعالم مطلقا أن يقول : « يجب أن نعيش العصر » . لأن هذا القول معناه : أن نعيش العصر ، فالعصر هو المشرع ، فإذا اضطرت ظروف العصر إلى أشياء يجب أن نأخذها ، والدين لا يمنعها ، فكأننا نريد أن يهبط منهج السماء إلى الأرض لتكون هى المشرعة .

نقول لهم : لا ، صفوا عباراتكم ، قد تكونون قد قُلتموها عن حُسن قصد ، أو عن عدم تمحيص لما يمكن أن يولده خصوم الإسلام منها .

« يجب أن نعيش العصر » !! لا ، عالم الدين يجب أن يقول : « يجب أن نعيش الدين » وليُخضع العصر أنفه لمنطق الدين إن أراد أن ينسب إلى الدين ، وإلا ؛ فإن لم يُرد أن ينسب إلى الدين فهو حر فى هذا .

فإذا ما كان بعض العلماء يخالف جمهرة العلماء فى حل بعض صور المعاملات البنكية ليقول إنها ليست من الربا وجمهور العلماء يقول إنها من الربا!

نقول لهم : جدلاً سنحترم رأيكم ، وإذا ما احترمنا رأيكم وجعلناكم طرفا مُقابلاً ، قلنا إن هؤلاء يحللون وهؤلاء يحرمون ، أو إن هؤلاء فقط يحللون ، وهؤلاء يحرمون سنحترم رأيكم جدلا ، ونقول : إذن ، فالأمر مشتبه : بعض يحلل ، وبعض يحرم ، ولا معنى للاشتباه إلا لهذا ، لأن معنى مشتبه يعنى : لا أستطيع أن أقول إنه حلال ولا أستطيع أن أقول إنه حرام .

هل رسول الله ترك مثل هذه القضية بدون حكم وحل ؟!

رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى فوضه الله أن يشرع لا يمكن أن يترك فى دينه هذه اللبنة بدون أن يضع لها حدًا ، فكأنما علم أن الطبع البشرى سينتهى إلى شىء قد توجد وجهة نظر وينتهى آخر إلى شىء آخر ، فقال : اسمعوا هذه القضية لتحكم لكم كل خلاف :

« الحلال بيّن ، والحرام بيّن ، وبينهما أمور مشتبهة ، أو مشتبهات » .

مشتبهات : يعنى يخفى فيها وجه الحِلّ ووجه الحُرمة . ولنجعل هذه المسألة منها . فماذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك ؟

قال : فَمَن ترك ما شبه له فقد استبرأ لدينه وعرضه[1] .

فكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يترك مثل هذه القضية ؛ ولكنه حكم فيها . ولكن : لماذا رجح جانب ترك على جانب فعل ؟!

لأنه يتكلم عن الاستبراء للدين وللعرض .

والاستبراء إن قال واحد بالحرمة وقال آخر بالحل .

إن أردت أن تستبرئ للدين وللعرض تترك أم تفعل ؟ تجعله حلالاً أم تجعله حرامًا ؟ أجعله حرامًا .

وإن لم أجعله حراما ولجأت إلى جانب التحليل أكون قد خالفت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله : « فمن ترك » ، لأنك لم تترك . تكون مخالفة صريحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهذه المخالفة تُدخلك فى ماذا ؟!

إذا كان الذى ترك قد استبرأ لدينه ولعرضه ، فمن لم يترك ماذا صنع ؟

لم يستبرئ لا لدينه ولا لعرضه .

وهل الدين مخالف للعرض ؟

نعم . . استبرأت لدينك لأنك ستستبرئ أن يأخذ واحد حكما عنك ، ويكون وزره عليك طول العمر .

وعرضك : حتى لا تلج فيك الناس وتقول : يا سلام! هذا دينه ضعيف ، هذا ليس متمكنا ، هذا يريد أن يطاوع الناس ، فتكون لم تستبرئ لعرضك .

إذن يجب أن نلحظ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يترك مثل هذه القضية ، وإنما شرع لها ، وحين يشرع لها يكون قد أخرجنا من المتشابه أيضا .

---

(١) سبق تخريجه .

إذن . . « الحلال بيّن » يعنى : ليس فيه خلاف .

« والحرام بيّن » ليس فيه خلاف .

« وبينهما » يعنى : فيه شبهة حِل وفيه شبهة حُرمة .

قال : « فمن ترك » أو « فمن فعل » ؟

« فمن ترك ما شُبِّه له فقد استبرأ لدينه وعرضه » .

أى : ومن لم يترك يكون لم يستبرئ لدينه ، فدينه ليس بريئًا ، ولا عرضه يسلم من القدح .

فعلى هؤلاء العلماء أن يلتفتوا جيدا إلى النص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقولوا قولة الحق فى مثل هذه المسائل .

حتى إن الذين فُتنوا بآرائهم وفُتنوا بفتاواهم يعودون ثانيًا إلى حظيرة الحق بالحق . وحينئذ يكونون قد استبرأوا بحق لدينهم ولعرضهم .

وعلى هؤلاء الذين يريدون أن يستقبلوا مثل هذه الفتاوى ، إن لم يجدوا من العلماء من يترك ما شبه له حتى يستبرئ لدينه وعرضه ، فيجب على السامعين لهذا الرأى أن يستبرئوا هم لدينهم ولعرضهم .

لأنه سيأتى يوم يتبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا . ويقول الذين اتبعوا : ﴿ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ﴾ [البقرة : ١٥٦] .

فليفهم جيدا هؤلاء أن الذين يتبعونهم ليُوافقوا غرضا عندهم فى تنمية ثرواتهم بغير طريق - لا أقول حرامًا - ولكن مشتبه فيه ، هؤلاء يجب أن يتنبهوا إلى أنه سيأتى يوم يتبرأ المتبوعون من التابعين .

ويجب أن يعلم هؤلاء أنهم سيرثون بهذا الفعل ضلالاً فى اعتقادهم وإضلالاً لغيرهم وذلك وزرٌ ، وهذا وزرٌ آخر ، ليَصدق فيهم قول الله تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [النحل : ٢٥] . يجب عليهم أن يتنبهوا جيدًا لهذه القضية .

وأقول للذين أخشى أن يُفتنوا بمثل هذه القضية : جربوها فى

نفوسكم ، واسألوا من كان يتعامل فيما يقول هؤلاء إنه حلال كيف كان حاله قبل ، وكيف صار حاله بعد أن ترك هذا ؟! كل واحد حجة على نفسه . وإني أسأل الله لهؤلاء أن يثوبوا إلى رشدهم ، وأسأل الله للذين يريدون أن ينتفعوا بهذه الفتوى أن يتنبهوا جيدا إلى أحوال الذين يتعاملون هذه المعاملة ، أو يتنبهوا إلى أحوالهم قبلها وإلى أحوالهم بعدها ، ويجب علينا جميعا أن نفهم أن كل خلاف يدب بين المسلمين هو خلافٌ مستغل ضد أصل الإسلام .

والذي يصنع شيئًا من هذا سواء كان مُفتيا ، أو مطبقًا ومنفذا ، سيكون من الذين يمسكون معولاً ليهدموا به قضية الإسلام عند خصوم الإسلام .

وإذا ما تركنا هذا الأمر جانبا في أن العلماء أو المسلمين الذين يخضعون لفتاوى العلماء يقفون مواقف - لا أقول - اجتهادية ، أن يعلموا جيدا أن أي خلاف في قضية الدين يستغله الذين لا يحبون الدين .

لأن هناك أُناسا لم يقدروا على نفوسهم لينصاعوا لحكم الله في حركة حياتهم ، فمن دواعي سرورهم أن تكون قضية الدين قضية كاذبة ، ومن دواعي سرورهم أن يتخاصم رجال الدين والمتبعين لأي دين ليجدوا لأنفسهم مبررا في أنهم لم يلتزموا .

وهؤلاء جميعا وزرهم عند العلماء وعند المطبقين للفتاوى غير الدقيقة من العلماء .

وإذا ما انتقلنا نقلة أخرى للشيء الذي يؤخذ على قضايا المسلمين لينفذ منه خصوم الإسلام ، يقولون : جادلوهم بمنطق القرآن ومنطق الحديث .

مما يدل على أن المخططين لهذا الأمر قرأوا القرآن جيدًا ، وقرأوه بفهم ، وقرأوا الحديث جيدا وقرأوه بفهم . إلا أنهم لم يقرأوه بنور ، ويوجد فرق بين الفهم والنور .

الفهم : يأخذ القضية ويحاول أن يجد لها مبررات عند السطح . ولذلك ألم يقولوا إن القرآن فيه تناقض ؟!

نحن نقول : لا ، لأننا أخذنا القرآن من حكيم : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٥] .

ولكنه لأنه من عند الله ، والله لا ينسى ولا يتضارب نقول : لا ، لابد أنه جاء بهذه لحكمة ، لابد أن لهذه معنى ، ونخرج منها أشياء . ولذلك القرآن يُلح إلى أن نتدبر ، ليس كلاما هكذا جاء هكذا فقط تتلوه ، لا ، بل تدبر .

ومعنى تدبر كما قلنا : يعني لا تنظر إلى واجهة ومعطيات الأشياء ولكن انظر إلى الخلفيات المعطاة من الدبر .

يوجد شيء يواجهك ، وشيء خلفك . شيء يواجهك : الذى نحن بصدده أمر واضح ومفهوم .

لكن يوجد شيء آخر . فالمؤمن ينظر إلى الأمام وإلى الخلف . الذى يخالف من الإسلام ينظر إلى الوجه فقط . . . آية ظاهرها التعارض هكذا يقول : لا ، إنه فيه تعارض ، لم ينظر إلى الواجهة الأخرى ، لم يتدبر .

فمثلاً يقول : إن الرسول الذى جاء القرآن على لسانه وقال إنه مُبلغ من عند الله ، هو نفسه أول من تضارب مع القرآن .

وجاء بالنص ، مما يدل على أنه مستوعب كيف يقول القرآن : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾ [الحشر : ٧] ، هذه من ضمن المأخوذ علينا ، التى يريدون أن يردوها علينا سَهمًا .

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾ ثم يأتى حديث : « أنتم أعلم بشؤون دنياكم »[1] !

---

(١) روى مسلم [٢٣٦٣/ ١٤١] عن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بقوم يلقحون . فقال : « لو لم تفعلوا لصلح » قال : فخرج شيصا . فمر بهم فقال : =

نقول لهم : إذا أردتم أن تفهموا : هل الذى قال أنتم أبصر بشؤون دنياكم » أليس هو رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والذي قال : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾ أليس هو الله سبحانه وتعالى الذى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم ؟!

هل قُبض محمد قبل أن يقول الثانية ؟!

إذن . . هو بلغ هذه وقال هذه .

إذن . . لابد أن تكون الجهة مُنفكة : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ .

إذن . . الحكاية آتانا الرسول فأخذنا ، قال : « أنتم أبصر بشؤون دنياكم »

وقال أيضا : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾ . هذا إذا كانت المسألة منصبة على شىء واحد ، فإن لم تكن منصبة على شىء واحد : الإسلام جاء بقوانين ، وهناك قوانين تختلف فيها الأهواء ، تُدْخِل فيها الإسلام . وقوانين الأهواء لا تختلف فيها ، قوانين علمية ، قوانين كونية ، قوانين تجربة ، قوانين أمور مادية ، الهوىٰ لا يدخل فيها ، ليس فيها هوى أبدًا ، هل دخل أى عالم من العلماء معمله ليتفاعل مع العناصر بهوىٰ عنده ؟! إلا هوى أن يصل إلى الحق الذى تهدى إليه المادة الصماء ؟! لم يدخل بهوى . لو دخل بهوى لا ينفع .

إذن . . دخل مجردا عن هوى ، فما تُعطيه المادة الصماء التى هو بصددها يكون هو القانون .

إذن . . توجد أمور مادية كونية تجريبية ، وأمور تخضع للهوى .

= « ما لنخلكم ؟ » قالوا : قلت كذا وكذا . قال « أنتم أعلم بأمر دنياكم » .
قوله : « فخرج شيصا » هو البسر الرديء الذى إذا يبس صار حشفا .

وإذا نظرنا إلى العالم المعاصر وجدنا هاتين الموجتين تحكمان حركة الحياة فيه :

حركة خاضعة للهوى ، كل واحد يقول الذى فى رأسه .

وحركة معملية خاضعة للتجربة ، وسنجد التجربة حكمت الجميع فلم يشذ عنها واحد ، وسنجد الهوى فرق الجميع فلم يجتمع عليه اثنان .

شرع الله.. هو العاصم من كل هوى

انتهينا فى الفصل السابق من الرد على قول خصوم الإسلام إن القرآن يناقضه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن القرآن قد قال : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ . ثم بعد ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى مسألة تأبير النخل : « أنتم أعلم بشؤون دنياكم »[1] ، فكأن شؤون الدنيا بمنطق الحديث خرجت عن منطق أمر النبى صلى الله عليه وسلم ونهيه فى قوله : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ .

والرسول صلى الله عليه وسلم حين يقول ذلك إنما يضع قاعدة كلية عامة ، تسير دائما بجانب منهج الله السماوى . فمنهج الله السماوى فيه أيضًا أن الله خلق الكون كله بنواميسه وعناصره وأجناسه وقوانينه . وهذه الأمور تخضع دائما للتجربة المعملية ، سواء قام بها مؤمن أو قام بها كافر . فهى تعطى ثمرتها للمؤمن وللكافر معا .

كما أن الله سبحانه وتعالى بعطاء ربوبيته جعل خير الأرض بكل أجناسها للمؤمن به وللكافر على حد سواء ، وأشرنا إلى هذه القضية فى أنه يجب أن نفرق بين إمامة المؤمنين المسلمين حين يجعلها الله فيمن يُؤتمن عليها ، وبين رزق أهل الأرض . فإبراهيم عليه السلام حينما ابتلاه الله بآيات أى : بمطلوبات فأتمهن ، ومعنى أتمهن : أنه أداها على أكمل ما يكون الأداء[2] .

جزاه الله بأن قال له : ﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ [البقرة : ١٢٤] لأنك

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [البقرة : ١٢٤]

أؤتمنت على منهج الله وأديته على وفق المطلوب لله ، فأنت أهل لأن تؤتمن .

قال إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ قال الله له : ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ . فكأن الإمامة عهد من الله للمأمون عليه فيها ، وتلك مسألة لا تخضع للجنس ولا للدم ولا لنسب اللحم ، فقال : ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وإن كانوا من أبنائك . قضية أخذها إبراهيم عليه السلام من ربه .

فحينما ذهب إلى الوادى غير ذى الزرع ليسكن امرأته هاجر وابنه إسماعيل عليه السلام ، دعا الله بموجب الحنان لابنه والرعاية لامرأته ، أن يرزق هؤلاء بالثمرات والرزق[1] .

ثم دعا الله سبحانه وتعالى فقال : ﴿ وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ ﴾ قال : ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ [البقرة : ١٢٦] أرزقه أيضًا ؛ لأنك خلطت بين عهدى فى الإمامة الإيمانية وبين الرزق .

فحين قال الله تعالى لإبراهيم عليه السلام : ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ سحب إبراهيم الأمر فى الإمامة والعهد على الرزق فقال : ﴿ مَنْ ءَامَنَ ﴾ فقال الله له : ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ .

إذن . . فمسألة الرزق بقانونه ، وبنواميسه ، وبإعطاء الأرض له من عناصرها ، وبإعطاء الشمس له من ضوئها وأشعتها ، ومن إعطاء الريح ، ومن إعطاء الماء ، كل ذلك أمرٌ هو من عطاء الربوبية ، يستوى فيه المؤمن والكافر . لذلك كانت كل التجارب عليه لا تخضع لقضية الإيمان ، ولكن تخضع لقضية الحركة فى الأرض .

فمن تحرك واستنبط وجد واجتهد يؤتى خير هذا ، وإن كان كافرا .

إذن . . فالرسول صلى الله عليه وسلم حين نهاهم عن تأبير النخل -

---

(١) إشارة إلى قول الله تعالى : ﴿ رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم : ٣٧] .

أى : تلقيحه – أخذها من قضية أن الله سبحانه وتعالى يخلق ما يشاء ، وأنه من الممكن أنهم لو لم يُلَقحُوه ويُؤبروه لصلح النخل ، ولكن المسألة التجريبية خذلت هذه الفكرة ، فجاءت التجربة بأن النخل خاس وشاخ ، فماذا يكون موقفه صلى الله عليه وسلم ؟!

إن موقفه صلى الله عليه وسلم أن يرد الأمر إلى قضية الربوبية فى إعطاء الأسباب حقها ، وإعطاء التجربة ، وإعطاء المادة ، وتُجعل التجربة على يد المشرع صلى الله عليه وسلم ، فيقول : « أنتم أعلم بشؤون دنياكم » أى : التى تعطيها التجربة ويعطيها المعمل ، السماء لا تتدخل فيها ؛ لأنها آتت كل الرزق بكل أسبابه وكل مقوماته ، وأنتم تجتهدون ، فما هدتكم تجربتكم المعملية إليه فافعلوه ، وإن كان الآمر بالمخالف رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فرسول الله يرد الأمر . . هو الذى نهىٰ عن التأبير ، وهو الذى قال : « أنتم أعلم بشؤون دنياكم » .

فيجب أن نأخذ : « أنتم أعلم بشؤون دنياكم » من القضية المنهى عنها ، وهي قضية التأبير ، وقضية التأبير هذه قضية تجريبية معملية .

إذن . . فالرسول صلى الله عليه وسلم يجعلها فى نفسه ، وشأن المشرع العالى حين يضع قضية أن يجعل تطبيقها أولاً على نفسه . فلم يمنعه اصطفاؤه من الله ، ولم يمنعه أن يرى الناس فى أمره الأول رأيا وهو عدوله عنه ، وآخر لم ير ذلك مانعًا له من أن يقول القضية لتكون دستورًا لنا فى الحياة فى كل أمر تجريبى وأمر معملى .

والقضايا التى يجد الحق سبحانه وتعالى أن فيها غضاضة على الناس ، يأتى بها على حكم المشرع نفسه صلى الله عليه وسلم .

ولذلك قلنا فى قضية التبنى : إن التبنى كان أمرًا معروفًا عند العرب ، يتبنى الواحد أى واحد ويجعله ابنه ويأخذ منه كل الحقوق التى للابن ، فجاء

الإسلام ليُبطل هذه المسألة ، لماذا ؟ لأن المسألة فى التبنى ليست مسألة إعطاء حنان ، وليست مسألة إعطاء ابن ، وإنما تتعدى إلى شيء غير ذلك ، وهو أنه سيكون ابنا ، فإذا جعلته أنت ابنا ولك بنت أيصبح أخاها ، له حق أن يراها ، وله حق أن يعيش معها تحت سقف واحد ، وله حق أن يتكلم معها ؟! بالطبع لا .

إذن . . فالمسألة تتعدى من مسألة الحنان ، ومن مسألة الرزق إلى مسائل أخرى ، لا تكشف عورتها عليه .

إذن . . الإسلام جاء ليحدد هذه الحركة ، فإذا ما أراد أن يبطل قضية التبنى ، وهي قضية شائعة موجودة عند العرب ومتأصلة فيهم ، والدليل على ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى كان يعزف عن كثير من أحكام الجاهلية وقضاياها إلى قضايا فطرية بعيدة عنهم ، فكثيرا ما كان لا يصنع أشياء مما تصنعها الجاهلية ، ومع ذلك أقر مسألة التبنى وتبنى زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه مكافأة له ؛ لأنه لم يقبل الخيار فى أن يذهب إلى أبيه ، وظل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إذن . . فمسألة التبنى كانت مسألة شائعة عند العرب لدرجة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كان يرفض كثيرا من قضايا الجاهلية بفطرته قبل هذه المسألة وفعلها هو فى نفسه وفى زيد بن حارثة .

فإذا أراد الله أن يُبطل هذه المسألة المتأصلة تأصلاً جعل رسول الله قبل أن يُنهى عنها يفعلها ، تكون التجربة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى يضع هذه القضية فى ذاته هو ، وهو الذى يعدل عن التبنى ، بعدما تبنى زيد بن حارثة يقول الله تعالى له : ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ ﴾ [الأحزاب : ٥] ، ولذلك نحن قلنا : إن الله عذر محمدا صلى الله عليه وسلم فى قضية التبنى لأنه عملها مكافأة لزيد ، فسماها قسطا ، ولم يسمها جورًا فقال تعالى : ﴿ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ .

﴿ أَقْسَطُ ﴾ يعنى الذى عمله محمد ليس جورًا ، إنما هو قسط ، ولكن توجد مسألة أحسن من هذا وهي ما يراه الله ويحكم به .

إذن . . مسألة القضية التى جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسألة التبنى كانت التجربة فى نفسه ، ومع أن هذه التجربة فى نفسه قد جرت علينا كثيرا من المتاعب ، فى سبيل أنهم قالوا : إنه تزوج امرأة زيد .

لأن تأصيل القضية لا يأتى إلا بهذا ، لأنه يريد أن يمنع المتبنى أن يكون له حق الابن ، بمعنى أن امرأة الابن لا تحل للرجل ، فقال له : لا ، تزوجها حتى تثبت لهم أن هذا ليس تبنيا ، وهذا التبنى تبنٍ باطل ، بدليل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج من زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها .

رسول الله صلى الله عليه وسلم كان دائما فى محل « الأسوة الراقية » . ومعنى : « الأسوة الراقية » المؤمنون مثلاً منهم أغنياء وفقراء ، كان رسول الله يعيش على حال الفقراء . المؤمنون منهم من يلبس اللباس الجديد ومنهم من يلبس اللباس الخشن ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس اللباس الخشن .

المؤمنون عندهم الأثواب متعددة فيغيرون فيها كيفما شاء ومتى شاءوا ، النبى صلى الله عليه وسلم لا يكون عنده إلا ثوب واحد .

الناس يكون عندهم غيار يلبسونه وغيار يخلعونه ، النبى صلى الله عليه وسلم ينتظر حتى يجف الثوب ثم يلبسه .

النبى عليه الصلاة والسلام إذا طلب منه أحد أن يقوم يتكلم معه ، لا يذهب حتى يذهب هو ، وكان إذا وضع أحد يده فى يده ، لا يسحب يده من يده إلا إذا كان الذى وضع يده هو الذى يسحبها بنفسه[1] .

---

(١) روى أبو داود [٤٧٩٤] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال : ما رأيت رجلا التقم أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فينحي رأسه حتى يكون الرجل هو الذى ينحي رأسه ، وما رأيت

إذن . فالرسول صلى الله عليه وسلم كان دائما « الأسوة الارتقائية » فكذلك كان فى الحكم .

فكأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : إن السماء تتدخل فى أموركم التى تخضع للهوى لتعصمكم من اختلاف الأهواء .

لكن أمرا محكوما بتجربة معملية ومحكوما بقانون أصم جامد ، سيعطى نتيجة واحدة ، فلا اختلاف للأهواء فيها .

ولذلك قلنا : إن العالم الآن فيه موجتان اثنتان :

الموجة الأولى : موجة نظرية . معنى : « موجة نظرية » أن كل واحد يأتى بنظرية من عنده .

الموجة الثانية : « موجة معملية »

والحضارات التى نعيش فى ظل ارتقاءاتها وطموحاتها الآن حضارات معملية ، حضارات مبنية على التجربة التى ابتكرت كثيرا من الأشياء ، واكتشفت أشياء كثيرة من أسرار الله فى الكون ، فاستفدنا بها ، وأثرت فى حضاراتنا . هذه كلها تجارب معملية .

والموجة الأخرى هى : موجة الأهواء والنظريات ، وقلت سابقًا إننا نعجب من أن الأمور النظرية الأهوائية يُحاول كل صاحب نظرية أن يمنع النظرية المقابلة من أن تتسلل إليها ، ويقوم بوضع عوائق وحدود وحُجُب حتى لا تذهب هذه المبادئ إلى هناك .

وفى المعملية التجريبية يحاول أن يتلصص عليها ليسرقها ، ليستفيد منها .

= رجلا أخذ بيده فترك يده حتى يكون الرجل هو الذى يدع يده . وقال الألبانى : حسن . وروى الترمذى [٢٤٩٠] عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا استقبله الرجل فصافحه لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل ينزع ، ولا يصرف وجهه عن وجهه حتى يكون الرجل هو الذى يصرفه ، ولم ير مقدما ركبتيه بين يدي جليس له . وقال الألبانى : ضعيف .

إذن . . فتوجد موجة نسرق الإنتاج فيها ، وموجة نمنع . . لماذا ؟

لأن هذه خاضعة للهوى ، فأنا لا أريد أن يأتى هواه ليحكم هواى .

إنما المسألة المعملية : هى سبق إلى اكتشاف شيء ، ولماذا لا أستفيد أنا منه ؟

إذن . . فالأمور المعملية لا هوى فيها وإنما الأمر فيها خاضع للتجربة المادية المعملية وهي لا تجامل .

فالله سبحانه وتعالى أنطق رسوله صلى الله عليه وسلم ليقول : « أنتم أعلم بشؤون دنياكم » [1] أى : التجريبية ، ما دمتم قد جربتم أشياء فى معملياتكم فأنتم الذين تقررون المسائل والسماء لا تتدخل ؛ لأنها تدخلت أولاً بأن وهبت الشيء ، ووهبت الناموس ، ووهبت الأقوال ، ووهبت العقول لتبحث ، ووهبت الجوارح لتنفعل . . كل هذا .

وقلنا : إن الأشياء التى خلقها الله لخدمة الإنسان ، خلقها مُسخرة .

مُسخرة : يعنى لا رأى لها فى أن تفعل أو لا تفعل .

وما دام قد خلقها الله مسخرة فهى غير مسخرة لمؤمن دون كافر ، مسخرة للكل ، فتعطى خيرها للجميع . وما دامت تعطى خيرها للجميع ، تكون فاعلة بنفسها .

❁ ❁ ❁

(١) سبق تخريجه .

الإسلام.. والتخلف

انتهينا فى الفصل السابق إلى أن الأمور الخاضعة للتجربة المعملية والتفاعل المادى الذى لا يجامل وليس له هوى يخدم به فكرة عن فكرة ، الله سبحانه وتعالى ترك العقول البشرية حرة تفكر وتخطط وتجرب وتستفيد وتنتفع ، ولذلك تؤتى أكلها ، سواء كان للمؤمن أو للكافر .

لهذا أطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم الحكم وجعل قضية السماء تتدخل فى عصمة الأهواء . عصمة الأهواء أن تتضارب ، فكل شىء من الممكن أن يخضع للهوى تتدخل السماء فيه لتمنع الهوى .

ومعنى منع الهوى أن لا يجعل هوى تابعًا لهوى ؛ لأن ذلك سيؤدى إلى صراعات القوى ، وصراعات القوى تؤدى إلى تهافت الأقوياء .

تهافت الأقوياء لا يخدم المجتمع فى شىء ؛ لأن القوة من هذا تقاتل القوة من هذا ، فالقوى تتداخل وتتآكل وتتفانى فى بعضها ، فيريد الله أن يعصمنا من الأشياء التى للهوى مدخل فيها فيشرع ، ويريد أن يطلق يدنا فى كونه لنأخذ أسراره من كونه ونستفيد منها فأباح لنا أن الذى تهدينا إليه التجربة نفعله .

وإذا ما نظرنا إلى هذه القضية وجدناها تخدم قضية أخرى ، هذه القضية الأخرى هى أن من الأشياء التى عابوها على ديننا أنهم يقولون إن الإسلام يمنع الذين ابتكروا الأشياء المفيدة ، وخاصة فى الأمراض التى تُنهى داءات البشر ، وتُنهى آلام البشرية بما ابتكرت وبما اكتشفت وبما اخترعت هؤلاء العلماء الذين أفنوا حياتهم فى ابتكار أشياء تُرفّه عن الناس وتسعدهم وتحمل عنهم مشقات العمل ، لأنها تعطيهم الثمرة بأقل مجهود فى أقل زمن ، مثل

هؤلاء الناس الإسلام يقول إن الله لا يجازيهم وليس لهم عند الله نصيب!

إنهم يريدون أن يُحمسوا الناس ضد الإسلام الذى يقول هذا .

فمثلاً عندما تكون أنت مريضًا ، وبعد ذلك جاء دواء اكتشفه واحد كافر ، وبعد ذلك أخذته فبرئت ، تقول : يا سلام! أهذا الذى أبرأنى من مرضى ليس له شيء عند الله ؟! فتكون هذه تحمس الناس على أن الإسلام ليس عنده عدالة .

على أن رب الجزاء لا يلاحظ الناس الذين أدّوا خدمات للإنسانية .

هؤلاء الرد عليهم فى منتهى اليسر وفى منتهى السهولة .

ما حظ الإنسان من حركته ؟

الإنسان يتحرك فى الحياة لماذا ؟

الإنسان بمعنى مطلق إنسان . أنا لا أقول مؤمنا ولا كافرا .

يتحرك فى الحياة لماذا ؟

يتحرك لغاية أولى .

هذه الغاية الأُولى هى : نفع نفسه اقتياتًا لاستبقاء حياته ، ونفع من يعوله أيضًا لاقتياته واستبقاء حياته .

ذلك أول شيء يُطلب من الحركة .

فإذا ما فعلت لإنسان شيئًا ، فقد أصبح فعلك لك . . لتأخذ الأجر ، لتأخذ قوتا وتقتات . والذى فعلت له ما مقصده ؟ مقصده أنه لا يقدر على الحركة فجاء بك لتتحرك له هذه الحركة .

وما دام لا يقدر على الحركة وجاء بمن يتحرك له هذه الحركة ، فلابد أن تكون أمرًا نافعًا له .

إذن . . فحركتك إما نافعة لذاتك يا متحرك ، وإما نافعة للغير . هذا الغير الذى ينتفع لماذا أعطاك الأجر ؟ لأنك فعلت له . أفعلت له أم فعلت

لنفسك أولاً ؟ أنت فعلت لنفسك ، تأخذ الأجر أنت ، وبعد ذلك هو أعطاك الأجر لماذا ؟ من أجل نفسه .

إذن . . قضية الأجر على العمل ؛ إما أن تكون عند الفاعل المباشر ، أو تكون عند المفعول له . . يطلبها ممن ؟ الإنسان يطلب أجره ممن ؟ أيعمل لك واحد عملاً ثم يطالب غيرك بالأجر . الأجر يدفعه من عملت له .

هذا الكافر الذى كفر بالله ، أكان الله فى باله ساعة ابتكر ؟ أكان الله فى باله ساعة اكتشف ؟ أكان الله فى باله ساعة أتعب نفسه فى معمله ؟ لم يكن شىء ، إنما كان جاهه ، شهرته ، شغفه بالعلم ، الإنسانية التى حوله تُكرمه ، تعطى له مفتاح كذا .

إذن . . ليس فى باله « الله » ، فالذي عمل من أجله وفى باله هو أعطاه الأجر تقديرًا وتكريما .

فإذا ما جاء يوم الجزاء ؛ أيعطيه الله أجرا ؟ لم يكن الله فى باله فلم يعمل من أجله! وماذا هو الفارق بين المؤمن والكافر ؟

الفارق بين المؤمن والكافر حتى فى العمل الذى يقوت الإنسان فيه نفسه .

الكافر يعمل لذاته ، يعنى : يعمل لذاته هو ، أى : يريد الأجر لنفسه .

والمؤمن ، وإن كان يعمل لذاته ، فهو يعمل لأن الله أمره أن يتحرك حركة تَسعهُ وتسع غير القادر على الحركة ، فيكون فى باله « الله » . يكون فى باله « الله » ما دام يريد أن يتحرك حركة فوق حاجته . لماذا تتحرك حركة فوق حاجتك ؟

قال : لأننى أقضى حاجتى من النهاية وما بقى يكون لغير القادر ، من ذُريتى الضعيفة ، من المحيطين بى . إذن فى باله من ؟ فى باله رب هؤلاء الخلق . فماذا يعطى له ؟ يعطى له جزاء .

ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يُصور لنا هذه المسألة تصويرا واضحا :

الأول يقول قضية عامة : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣] .

إذن . . فهم قد عملوا . وبعد ذلك جعل الله عملهم هباء .

ويقول فى آية ثانية : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝ ﴾ [الكهف : ١٠٣] .

كان من الممكن تأخذ الصنعة وكل حاجة وتأخذ الأجر بشرط أن يكون ربنا فى بالك ، كنت ستأخذ هذه وهذه .

ثم يعطى لنا مثلا واضحا : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [النور : ٣٩] ، ليته لم يجده شيئًا فقط! ولكنه فوجئ بأن وجد الله عنده .

ما دام فوجىء بأن وجد الله عنده ، فإنه لم يكن الله فى حسابه ، فكأن الذى سيجازى لم يكن فى باله يوم فعل ، فماذا تنتظر أن يُعطى الله لمن لم يكن فى باله يوم فعل . . إذن هذه عدالة ، إنما لم يُضيع إحسان العمل ، اجتهد فى المعمل ، وربنا أعطىٰ له النتيجة . . المجتمع قدره ، أخذ حظه من كل شىء فى الدنيا .

ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « فعلت ليُقال وقد قيل »[1] .

---

[1] روى مسلم [١٩٠٥/١٥٢] عن أبى هريرة رضي الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال : جرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي فى النار . ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتي به فعرفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم=

إذن إذا سمعنا قول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ﴾ لا نقول : إن ربنا ليس عادلا - حاشا وكلا - وهذه ليست نظرية الإسلام ، بل نظرية كل الأديان .

فإن جاءت آية : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [الكهف : ٣٠] ، نقول له : ﴿ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ أجره ماذا ؟

نقول : إن أتقن العمل ، يكون له زبائن - عملاء - كثيرون ، فيغتني ، والناس تقدره ، والناس يعملوا له كذا وكذا ، يصبح مشهورا ، لا أحد يقدر يُزاحمه .

إنما إذا لم يكن الله في باله ؛ المسألة التي فيها منطقة « الله مجازي » يكون ليس له فيها عندنا أجر .

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ [هود : ١٥] ، لا يظلمون أيضًا ، بل نعطيهم أجرهم ، نعطيهم شهرة ، نعطيهم مجدا ، نعطيهم جاها ، نعطيهم كنوزا ، نعطيهم كل شيء ، إنما عند الله ليس لهم شيء ؛ لماذا ؟ لأن الله تعالى لم يكن في بالهم ساعة عملوا [١] .

= ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار . ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك قال : كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار .

(١) روى البخاري [١] ومسلم [١٩٠٧/١٥٥] عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمالُ بالنِّيّاتِ وإنّما لِكُلِّ امرئ ما نَوَى ، فَمَنْ كانَتْ هِجْرَتُهُ إلى اللهِ وَرَسولِهِ فَهِجْرَتُهُ إلى اللهِ وَرَسولِهِ ، وَمَنْ كانَتْ هِجْرَتُهُ إلى دُنْيا يُصِيبُها أوِ امْرأةٍ يَنْكِحُها فَهِجْرَتُه إلى ما هَاجَرَ إلَيْهِ » .

قال الإمام النووي : هذا حديث متفق على صحته ، مجمع على عظم موقعه وجلالته ، وهو أحد الأحاديث التي عليها مدارُ الإسلام ؛ وكان السلف وتابعوهم من الخلف رحمهم الله تعالى يَستحبُّون استفتاح المصنفات بهذا الحديث ، تنبيهاً للمُطالع على حسن النيّة ، =

وأيضا من ضمن الأشياء التى يذيعونها ويحاولون جاهدين أن يؤثروا بها

= واهتمامه بذلك والاعتناء به .
روينا عن الإمام أبى سعيد عبد الرحمن بن مهدي رحمه الله تعالى : من أراد أن يُصنِّف كتاباً فليبدأ بهذا الحديث .
وقال الإمام أبو سليمان الخَطَّابي رحمه الله : كان المتقدمون من شيوخنا يستحبُّون تقديم حديث الأعمال بالنيّة أمام كل شيء ينشأ ويبتدأ من أمور الدين لعموم الحاجة إليه فى جميع أنواعها .
وبلغنا عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : إنما يُحفَظُكَ الرجلُ على قدر نيته .
وقال غيرُه : إنما يُعطى الناسُ على قدر نيّاتهم .
وروينا عن السيد الجليل أبي عليّ الفُضيل بن عياض رضي الله تعالى عنه قال : تركُ العمل لأجل الناس رياءٌ ، والعمل لأجل الناس شركٌ ، والإخلاصُ أن يعافيَك الله منهما .
وقال الإمام الحارث المحاسبيُّ رحمه الله : الصادق هو الذى لا يُبالي لو خرج كلُّ قَدْرٍ له فى قلوب الخلق من أجل صَلاح قلبه ، ولا يحبُّ اطِّلاع الناس على مثاقيل الذَّرِّ من حسن عمله ولا يكرهُ أن يطلعَ بعضُ الناسُ على السيء من عمله .
وعن حُذيفة المَرْعشيّ رحمه الله قال : الإخلاصُ أن تستوي أفعالُ العبد فى الظاهر والباطن .
وروينا عن الإمام الأستاذ أبي القاسم القُشَيريّ رحمه الله تعالى قال : الإخلاصُ إفرادُ الحق سبحانه وتعالى فى الطاعة بالقصد ، وهو أن يُريد بطاعته التقرّب إلى الله تعالى دون شيء آخر : من تصنعٍ لمخلوق ، أو اكتساب محمَدةٍ عند الناس ، أو محبّة مدحٍ من الخلق أو معنى من المعاني سوى التقرّب إلى الله تعالى .
وقال السيد الجليل أبو محمد سهل بن عبد الله التُستَريُّ رضي الله تعالى عنه : نظر الأكياسُ فى تفسير الإخلاص فلم يجدوا غير هذا : أن يكون حركتُه وسكونه فى سرّه وعلانيته لله تعالى ، ولا يُمازجه نَفسٌ ولا هوىً ولا دنيا .
وروينا عن الأستاذ أبي علي الدقاق رضي الله عنه قال : الإخلاصُ : التوقّي عن ملاحظة الخلق ، والصدق : التنقّي عن مطاوعة النفس ، فالمخلصُ لا رياء له ، والصادقُ لا إعجابَ له . وعن ذي النون المصري رحمه الله قال : ثلاثٌ من علامات الإخلاص : استواءُ المدح والذمّ من العامّة ، ونسيانُ رؤية الأعمال فى الأعمال ، واقتضاءُ ثواب العمل فى الآخرة . وروينا عن القُشَيريّ رحمه الله قال : أقلُّ الصدق استواءُ السرّ والعلانية .
وعن سهل التستري : لا يشمّ رائحة الصدق عبدٌ داهن نفسه أو غيره ، وأقوالهم فى هذا غير منحصرة ، وفيما أشرت إليه كفاية لمن وُفق .
وفي مسند الشهاب [١/١١٩] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : نية المرء أبلغ من عمله .

على الشباب المسلم ، يقولون : دعوهم فى إسلامهم الذى أوقفهم فى الأرض موقف التخلف ، وجعلهم فى الكون فى منزلة الأتباع دائما .

يعنى : يريدون من العالم الإسلامى أن يكون عالما كله فقير ، عالم ليس متقدما ، عالم متخلف .

وهذه قضية لا ننكرها الآن ، لكن حتى لا نبث هذه المسألة فى نفوس أبنائنا وحتى لا نيئسهم وحتى لا نوقفهم هذه الوقفة من الدين ، نقول لهم : أوَذلك الأمر الذى عَرضَ للمسلمين فى بقاع الأرض فى هذا العصر كان أمرًا لازما عليهم كمسلمين فى كل عصر ؟

الجواب منهم هم : لا .

لماذا ؟ لأنهم كانوا يسمون عصورهم فى أوربا : « العصور المظلمة » ، فى القرون الوسطى ، ونحن كنا فى غاية الارتقاء .

إن الخليفة المسلم « الرشيد » بعث إلى « شرلمان » ساعة دقاقة تدق بالماء ، فلما ذهبت ببلاط فرنسا ، قالوا : إن فيها شيطانًا! هم الذين قالوا إن فيها شيطانًا!

إذن.. نحن الذين كان عندنا ارتقاءات فى العلم ، ارتقاءات فى الحضارة .

وإذا ما أردنا أن نشهد ذلك ننسب كل علم موجود الآن إلى أصله الأول ، إذا نسبنا أى علم موجود الآن وجدنا أن بذرته ونواته الأولى وأن الرواد الأوائل فيه من علماء المسلمين ، وهم كانوا القنطرة التى عبرت منها أوروبا إلى حضارتها ، هذا بإقرارهم .

ولذلك قلنا اذهبوا فى مكتبة : « الكنجار » فى أمريكا تجدوا أن الرسم المعملى للعملية الكيمائية فى الأرض صورة عربى أمام إنديقه ، فى مكتبة الكنجار ، الرسم : صورة عربى أمام إنديقه وهو يجرب ويقطر ، وكذا وكذا .

مما يدل على أن من عندنا نحن نواة كل حضارة ، وبذرة كل علم تقدمى .

إذن . . فإن قالوا : إننا أُمم متخلفة ، نقول لهم : إن هذا التخلف طبيعة لازمة للإسلام أم أنه أمر طرأ ؟ طرأ على ماذا ؟

طرأ على تحضر أم لم يطرأ على تحضر ؟

بإقرارهم هم أننا كنا متحضرين ، وإنهم هم أخذوا عنّا كل شىء من الممكن أن يكون أساسا لهذه الحضارة .

والإسلام لم ينزل الآن حتى نقول إنهم بمجرد اعتناقهم للإسلام تخلفوا ؛ الإسلام نزل من أربعة عشر قرنًا .

أول من تأثر به أمة متبدية ، أمة أُمية فى ذلك العالم .

وبعد ذلك هذه الأمة المتبدية ؛ الأمية قادت أُمما متحضرة ، قادت الفرس وقادت الروم ، وحكموهم بنظام اسمه النظام الإنساني الراقى ، جماعة لا يعرفون إلا البدو والقبيلة ورب الأسرة ، ومع ذلك جاءوا بالقوانين التى حكمت الدنيا على اختلاف طبائعها واختلاف حضاراتها واختلاف أجناسها ، وارتقاءاتها بالعلوم .

ويشاء الله سبحانه وتعالى ، أن يجعل انتصار الإسلام فى هذا الزمن على جناحين جناح شرقي فى فارس ، وجناح غربى فى الروم . وهاتان هما الأمتان اللتان كانتا متحضرتين فى العالم .

ومع ذلك حينما رأوا ما جاء به الإسلام من نظم تحكم قضية الحياة ، وتدير سياسة الدنيا ، تهافتوا هم على هذه الحضارة ، وهم الذين جذبوها إليهم ، ولذلك ذهب الإسلام بقوتين :

قوة الاندفاع من معتنقيه .

وقوة الجذب من طالبيه .

الاثنان : هذا دفع ، وهذا جذب ، فانتشر الإسلام .

لذلك هذا هو الذى يجيب على منطقة التعجب : كيف انتصر الإسلام وهم أُمة متبدية ، وأمة أمية ليس عندها شيء من الحضارة ولاحظ من التقدم ، ومع ذلك فى هذه الفترة الوجيزة سادت الدنيا ، فى نصف قرن ؟!

نقول له : لأنهم كانوا قوتين تعملان ، وتعملان بإخلاص :

المسلمون مندفعون لينشروا دينهم .

والعالم المتحضر يئن من آلام حضارته .

فحينما رأى ذلك النور جذبه ، فأصبحت قوة تجذب ، وقوة تدفع ، فهما قوتان تعملان لنشر العلم وسياحته فى كل الأرض .

الإسلام.. وواقع المسلمين الآن

انتهينا فى الفصل السابق إلى الرد على نقطة الاعتراض من خصوم الإسلام بأن أمم الإسلام الآن أمم متخلفة .

وقلنا : إن الإسلام لم يجئ حديثًا فبمجرد أن اعتنقته هذه الأمم تخلفت ، ولكن الإسلام وجد منذ أربعة عشر قرنًا .

والإسلام جُرب فى الحياة ، وانطلق انطلاقاته ، من أمة متبدية ، لاحظ لها من علم ، ولاحظ لها من ثقافة ، ولاحظ لها من حضارة ، ومع ذلك أمكنها أن تسوس حضارتين متعاصرتين ، إحدى الحضارتين كانت فى الشرق فى فارس ، والحضارة الأخرى كانت فى الغرب فى الرومان .

وقلنا : إن الإسلام يعطى الجواب عن منطقة الغرابة فى أنه انتشر هذا الانتشار فى المدة الوجيزة ، وعللنا ذلك بأن الإسلام كان مدفوعًا بقوة مؤمنة تحاول أن تنشره فى العالم ، وأيضا مجذوب بقوة أخرى هى القوة التى كانت تئن من وطأة النظم التى كانت تحكمها بعيدة عن دين الله .

وإذا أردنا أن ننظر إلى القضية نظرة ذاتية إيمانية يجب أن نتوجه إلى المسلمين أنفسهم فى هذا الموضع ، لنُعلمهم أن واقع المسلمين كمسلمين خذل قضية الإسلام كإسلام . لأنهم جعلوا من حال المسلمين حكما على الإسلام .

ومنطقة العدل يجب أن تعزل بين الإسلام كدين له مبادؤه ، وبين من يدعى أنه نسب إلى الإسلام وهو مسلم . لأن أى دين إذا تبعه تابع له فقد يحكم على التابع بأنه طائع ، وقد يحكم عليه بأنه عاص ، فلا تأخذ من عصيان العاصين لدين اعتقدوه واعتنقوه إلا أنهم لم يلزموا أنفسهم بتطبيق

مناهجه ومبادئه . لا تأخذ من تصرفاتهم هم حكما على الإسلام .

ولذلك الذين يأخذون هذا التصرف يقولون صادقين إننا أُمم متخلفة .

مسلمين متخلفين ، إنما ليس إسلامًا متخلفا .

نحن لو نظرنا على التحقيق لوجدناهم تخلفوا لأنهم لم يكونوا مسلمين .

إذن . التخلف ليس لأنهم مسلمين ، بل التخلف إنما نشأ لأنهم لم يكونوا مسلمين . بدليل أنهم حين كانوا مسلمين كما عرفناهم فى الأول كان دينهم هو الغالب .

وبدليل أننا وجدنا الحُجة للإسلام فى أن أوربا حينما كانت الكنيسة تسيطر عليها وتقبض بيدٍ من حديد على حركة كل مفكر ، فلا يمكن أن يفكر حتى فى علم معملى مادى ، وكم سُرق أُناس وكم عذب علماء فى سبيل هذا .

ولذلك كانت النتيجة الحتمية أن الفكر قُبر ، وأن العلماء اضطهدوا ، مما جعل المفكرين يبتعدون عن هذه المنطقة .

وكان من نتيجة ذلك أن وجد عهد اسمه « العهد المظلم » .

فلما قامت الثورات ضد الكنيسة ، ووضعت الكنيسة موضعها الطبيعى ، وجعلت سلطة « البابا » لا سلطة لها على مثل هذه النشاطات ؛ ابتدأت أوروبا ترتقى .

فلما ارتقت أوروبا جاء الذين يكرهون الدين ، لم يقولوا إن الكنيسة كانت تسيطر على العلم وعلى العلماء ، ومن هذا نشأ التأخر! لم يقولوا هذا .

ولكنهم قالوا : إن الدين عوق الحضارة فحملوا الدين وزر الكنيسة .

فلما حملوا الدين وزر الكنيسة ، ساد عندهم أن الدين معوق حضارة ،

بدليل أن الدين حينما كان مسيطرا - أى الكنيسة مسيطرة - تأخرت أوروبا ، فلما قُبضت الكنيسة عن حركة الحياة ، ارتقت أوروبا .

أخذوها قضية عامة ، فنقلوها من سُلطة البابا إلى سلطة الكنيسة إلى الدين نفسه .

فلو قالوا الدين المسيحى . . !! ، لكن لقنوه إلى المستغربين من أبنائنا ، ونشروه بواسطة أبواق المستشرقين ، وقالوا : إن « الدين » هو سبب التخلف!!

« الدين » مطلق دين ؟!

المسلمون الذين استغربوا أخذوا قضية أن الدين سبب التخلف ، أخذوها من واقع أوروبا ، أخذوها من البيئة التى هناك ، من سلطات الكنيسة ، من سلطان البابا ، وقهر العلماء .

وبعد ذلك نقلوها نقلة إنها « المسيحية » ، ونقلوها نقلة إنها « الدين » ثم عمموها فى كل دين ، مما يدل على أن أبواقنا من المستغربين أخذوا قضايا ورددوها عندنا ، ليس عندهم خميرة دينية ، لا يعرفون ما هو الدين ، كانوا يعتقدون أن الدين مجرد طقوس عبادية : الصلاة والصوم والزكاة والحج ، وتنتهى المسألة ؛ ليس نظاما لقيادة حركة الحياة .

فلما سمعوا ذلك الكلام جاءوا هنا فرددوه ، فأصبحت القضية : أن الدين يدعو إلى التخلف .

نقول لهم : لا ، أنتم مخطئون فى هذا .

الدين يدعو إلى التخلف!! أبدًا . الدين لا يدعو إلى التخلف ، حتى المسيحية لا تدعو إلى التخلف ، المسيحية جاءت بالشحنة الروحية ، لم تقل إننى أتعرض لقضية الحياة ، لم تقل إننى أضع نظاما لهذه الحركة ، لم تقل هذا ، إنما هى جاءت للعنصر المفقود ، وهي المسألة الوجدانية الدينية والروحانية فقط . إنما المسألة المادية كانت موجودة قبل ذلك فى العهد

القديم ، فلما جاء الإسلام ووجد الدينين متباعدين ومتعاندين كان ولابد أن يجيء الدين الذى يجمع الأمرين فى الكتاب نفسه ، وهو القرآن . يجعل الدين فى فرضياته للأمور الأهوائية يعصمنا من اضطرابنا فيها ، والأمور الأخرى يطلق أيدينا فيها .

والدليل على ذلك أن العلماء الأوائل الذين فهموا دينهم وفهموا لغة الدين إلى العلم التجريبى ، اللغة التى سبقت الدنيا كلها : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف : ١٠٥] ، هذا يعنى علينا أننا نرى آيات كثيرة فى السماء والأرض ونمر عليها بإعراض . . إذن فماذا يكون المراد ؟

إذا كان يلومنا فى أننا نمر بآيات كثيرة فى الأرض والسماء ومع ذلك نمر عليها بإعراض ، فكأنه بالمفهوم يقول لك : لا ، أى آية لا تُعرض عنها ، لأنك لو تأملتها ، وتدبرتها ، ووضعتها موضع الملاحظة القوية والتجربة الشاملة ، من الممكن أن تستفيد منها فائدة تُعينك فى ترف حياتك أو فى ضرورياتها .

وهو هذا ، إذا رأيت العلم التجريبى وجدت هذه الآية هى الأساس الذى يُبنى عليه العلم التجريبى .

ثم هناك ملاحظة ظاهرة فى الكون ؛ هذه الملاحظة ملاحظة مستديمة ، فإذا ما لاحظتها ، تبتدئ تجرب عليها ، فإذا ما جربت عليها انتهيت إلى قضية تخدم بها .

ولذلك قلنا فيما مضى : الذى اخترع عصر البخار ، وأراح الدنيا من كثير من المتاعب ، من أى شىء أخذها ؟

إنه أخذها من قدر يغلى وتحته نار ، وجد غطاء القدر يرتفع وينخفض ، فهذه الظاهرة جعلته يلتفت . . ما هذا ؟ فذهب إلى غطاء القدر فوجد بخارًا كثيرًا يتصاعد .

إذن . . عندما تحول السائل إلى بخار ، البخار له طاقة تدفع .

قال : ما دام هذا البخار له طاقة تدفع ، فنحن نقدر نستخدمه .

فعمل عصر البخار ، كمية ماء ، وكمية وقود ، ويتصاعد البخار ، فكلما يتصاعد البخار يريد أن يرتفع ، فيعمل له عجل ، فيمشى عليه . وبعد ذلك ارتقت هذه المسألة .

إذن . . فمن ملاحظة بسيطة أمكن أن نستفيد هذه الفائدة الكبيرة التى كانت عصر البخار كله .

ومثلاً الغواصات التى تغوص فى البحر ، والطرادات التى تمشى فيه كأنها الأعلام كما يقول ربنا . كيف تمشى ، وتكون حمولتها كم ألف طن وكم كذا وتمشى على الماء . كيف ؟ من ملاحظة بسيطة لاحظها عالم عندما نزل مغطس الحمام خرجت كمية من الماء من الحمام .

فقال : لماذا عندما نزلت فى مغطس الحمام خرجت كمية الماء هذه ؟

فوجد أنه ساعة نزل مغطس الحمام أزاح قدرًا من الماء ، الماء الذى أزاحه بقدر حجمه . لماذا أزاحه بقدر حجمه ، لكن ليس بوزنه ، فعرف أنه توجد علاقة بين الحجم والوزن ، فعندما جاء بقطعة من المعدن مثلا فرماها فى الماء فإنها تغطس . فإذا طرقها طرقا وعمل منها صفيحة كبيرة ثم رماها فى الماء فإنها تعوم ، مع أن الوزن واحد ، لكن الحجم ليس واحدًا .

إذن . . أى سفينة أو أى شىء ، الذى يغطس منها يكون بقدر الثقل ، أى : يزيح ماء على قدره .

ولذلك كلما تُحمل السفينة ، تغطس أكثر فى الماء لأنها تثقل ، فلابد أن تزيح ماء بمقدار هذا الثقل .

إذن . . هذه مسألة أخذها من ملاحظة بسيطة . وبعد ذلك أخذها فى الغواصة ، أخذها فى أنه يعوم وأخذها فى أنه يغطس أيضًا .

إذن . . مادامت المسألة هكذا ، فأنا آتى بخزانات وأملؤها ماء ، فتكون

المياه كثيرة فتُغرق الغواصة ، ولما أريد أن تطفو أُصفى كمية من الماء ، كلما يصفى كمية من الماء تطفو ، وتطفو ، مسألة فى منتهى اليُسر ومنتهى البساطة .

إذن . . ربنا سبحانه وتعالى عندما يقول فى القرآن : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ ﴾ أى : كثير من الآيات ﴿ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ لم يتدبروها ؛ كل هذه المسائل دعت إلى العلم التجريبى ، ولذلك كان كل العلماء الذين تكلموا فى العلم التجريبى قالوا : إننا نبحث فى استنباط أسرار الله فى آياته ، لأن الله له آيات محكمات من القرآن وله آيات فى الكون .

هذه الآيات فى الكون آيات منظورة ، وهذه الآيات فى القرآن آيات مسطورة .

فنحن بالدين نطبق الآيات المسطورة بما نجده فى الآيات المنظورة .

إذن . . فالإسلام هو أصل ذلك كله .

ويجب أن يعلم أن حال المسلم المنسوب إلى الإسلام قد يضر قضية الإسلام فى ذاتها ؛ لأن السطحى منهم ينظر إلى المسلمين وكأنهم الإسلام ، لكن الإنصاف يقتضي أن يقولوا : مادام هذا منهجا ، فهو عُرضة لأن يُطاع وأن يُعصى ، فأنا لا آخذ من الناس الحكم على المنهج ؛ لأنه من الجائز أن يكونوا عاصين ، أإذا رأيت مسلما يشرب خمرا ، أعيبُ الإسلام ؟

نقول له : أجرمت الخمر أم لم تجرم ؟

الإسلام جرم من يشرب الخمر أم لم يجرمه ؟ جرمه ووضع له عقوبة بأن نجلده . إذن المسألة ليست مسألة مبدأ فحسب . بل المسألة مسألة تطبيق المبدأ .

ولذلك فهذا من أسباب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حذر المسلمين من أن يتهاونوا شعرة فى أمور دينهم . لأن تهاونهم الشعرة فى أمور دينهم سيكون فجوة يدخل منها من يريد الكيد للإسلام .

يقولون : انظر يا أخي ماذا يعمل المسلمون!!

ولذلك قال : « كل واحد من المسلمين على ثغر من ثغور الإسلام » [1] .

---

(١) رواه المروزي في كتاب السنة [٨] بسند صحيح عن الوضين بن عطاء عن يزيد ابن مرثد مرفوعا بلفظ : كل رجل من المسلمين على ثغرة من ثغر الإسلام ، الله الله ، لايؤتى الإسلام من قبلك .

قال الألباني في السلسلة الضعيفة [٣/ ٣٠٩] فيه علتان :

الأولى : الإرسال . . فإن ابن مرثد هذا تابعي له مراسيل كما في التقريب . والأخرى : الوضين بن عطاء ، فإنه مختلف فيه ، وقد جزم الحافظ بأنه سيئ الحفظ ، فيخشى أن يكون أخطأ في رفعه ، فقد عقبه المروزي بروايتين موقوفتين على الأوزاعي والحسن بن حي وفيهما ضعف . والله أعلم

ونحوه ما رواه أبو داود [٢٥٠١] عن سهل بن الحنظلية : أنهم ساروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حُنَيْن ، فأطنبوا السير حتى كانت عَشِيَّةً ، فحضرت الصلاة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء رجلٌ فارسٌ فقال : يا رسول الله ، إني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا ، فإذا أنا بهوازن على بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم وشائهم اجتمعوا إلى حنين . فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « تلك غنيمة المسلمين غدا إن شاء الله » .

ثم قال : « من يحرسنا الليلة ؟ » قال أنس بن أبي مرثد الغنوي : أنا يا رسول الله . قال : « فاركب » فركب فرساً له ، وجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « استقبل هذا الشِّعْبَ حتى تكون في أعلاه ، ولا تُغَرَّنَّ من قبلك الليلة ، فلما أصبحنا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مصلاه فركع ركعتين ثم قال : « هل أحسستم فارسكم ؟ » قالوا : يا رسول الله ما أحسسناه ، فثوب بالصلاة ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي وهو يلتفت إلى الشِّعب حتى إذا قضى صلاته وسلَّم قال : « أبشروا فقد جاءكم فارسكم » فجعلنا ننظر إلى خلال الشجر في الشِّعب ، فإذا هو قد جاء حتى وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلَّم فقال : إني انطلقت حتى كنت في أعلى هذا الشِّعب حيث أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أصبحت اطلعت على الشعبين كليهما فنظرت فلم أر أحدا .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هل نزلت الليلة » ؟

قال : لا ، إلا مصلياً أو قاضياً حاجة .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قد أوجبت فلا عليك أن لا تعمل بعدها » .

وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة [٣٧٨] .

كل واحد مسلم كأنه واقف على ثغر من ثغور الإسلام . أى : بتصرفه ، بسلوكه ، بخضوعه لمنهج الدين ، بارتباطه بقضاياه . « فليحذر كل واحد منكم أن يؤتى الإسلام من قبله » .

كأن كل واحد منّا يسد ثغرة ، فإذا ما رأونى أنا مهملا فى حاجة ينفذوا منها .

فكذلك هم نظروا إلى المسلمين فوجدوا ثغرات فدخلوا على الإسلام من ثغرات المسلمين .

إن المسلمين جميعًا كل واحد منهم يمثل وحدة إيمانية مستقلة ، هذه الوحدة الإيمانية المستقلة ، يعتبرها الرسول صلى الله عليه وسلم ثغرا .

فكل واحد ينفذ أوامر الله فيها فقد سَدَّ ثغرة يدخل منها خصوم الإسلام إلى الإسلام . وإذا ما اختل توازن السلوك بالنسبة للمنهج فى أى فرد ، كان ذلك ثغرة يدخل منها خصوم الإسلام .

ولذلك قلنا : إن المفكرين فى الأديان الأخرى حينما يذهبون إلى الإسلام لا يذهبون إليه من ناحية أتباع الإسلام ، وإنما ينظرون إلى الإسلام كمنهج مستقل ؛ لأن المفكر يفرق دائمًا بين مبدأ وبين معتنق مبدأ .

لأن معتنق المبدأ إنه قد يهمل مبدأه فى بعض الأحايين[1] ، فلا تنظره أنت ساعة إهماله لتتهم الإسلام به . ولكن انظر إلى مبدأ الإسلام فى ذاته .

فالمفكرون حين يبحثون فى الإسلام لا ينظرون إلى من يتبعون الإسلام ، وإنما ينظرون إلى الإسلام فى ذاته .

ومن ذلك أغلب المفكرين الذين يتجهون هذا الاتجاه يلجأون إلى الإسلام ويؤمنون به .

---

(١) حِينٌ : ظَرْفٌ مُبْهَم يَصْلُحُ لِجَمِيعِ الأَزْمَانِ طَالَتْ أو قَصُرَتْ المدَّةُ : وجَمْعُها : أَحْيَان ، وجَمْعُ الجَمْعِ : أَحَايِين وهُوَ مِمَّا يُضاف إلى الجُمَل .

ولكن الذين يذهبون إلى الإسلام من جهة أتباعه ؛ إن صادفوا تابعًا للإسلام ملتزمًا ، دعاهم ذلك إلى أن يؤمنوا به .

ولذلك كانت الجمهرة الكثيرة الوفيرة فى البلاد الإسلامية المعاصرة هى التى لم يدخلها فتح إسلامى ، وإنما دخلتها الأُسوة الإسلامية فى أفراد تابعين ملتزمين .

فراق الناس ما هم عليه من حركة حياة ورعة ، ومن تصرفات مستقيمة جميلة ، من أسلوب تعامل سَمح أمين نزيه نظيف .

كل ذلك لفت الناس : ما الذى جعلكم على هذا ؟

قالوا : لأننا مسلمون .

مسلمون يعنى ماذا ؟

كذا كذا . . كذا كذا . . [1] .

---

(١) روى الإمام أحمد فى المسند [١/ ٢٠١-٢٠٢] عن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت : لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشي أمِنّا على ديننا وعبدنا الله لا نؤذى ولا نسمع شيئا نكرهه فلما بلغ ذلك قريشا ائتمروا أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين جلدين وأن يهدوا النجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة وكان من أعجب ما يأتيه منها إليه الأدم فجمعوا له أدما كثيرا ولم يتركوا من بطارقته بطريقا إلا أهدوا له هدية ثم بعثوا بذلك مع عبد الله بن ربيعة بن المغيرة المخزومي وعمرو بن العاص ابن وائل السهمي . . الحديث . . والشاهد منه قول جعفر بن أبى طالب رضي الله تعالى عنه للنجاشي رحمة الله تعالي عليه واصفا له أخلاق المسلمين وأحوالهم قبل الإسلام ، وما آل إليه أمرهم بعد أن آمنوا . أوردناه للتأسي به وهو قوله رضي الله تعالى عنه : أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار يأكل القوي منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نحن نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام . . فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان بدلا من عبادة=

إذن . . فالذي لفت إلى الإسلام هو السلوك المنهجي من الملتزم .

ولذلك : الحق سبحانه وتعالى حين يعرض منهج الدعوة الناجحة يقول : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ هذا بلسانه ﴿ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ ليدل على أن ما دعا إليه ، لا يدعو الغير إليه ؛ إلا لأنه وجده مفيدًا فالتزمه هو ، وقديماً قالوا : إن كان لك خير فيكون لك خير فى نفسك أولاً .

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ وعمله الصالح يكون شهادة للكلام الذى قاله ؛ لأنه وجد فى الكلام خيرًا فكان أولى به أن يتبعه ، ولذلك جاءت ﴿ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ .

ولا يكفى أن يكون ذلك ﴿ وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ قال لمن ؟ قال : ﴿ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ لمن يرونه على السلوك السمح الطيب فأكون قد عملت هكذا لأننى مسلم . فيكون قد لفتهم من ذاته إلى دينه .

لا تلتفت أنت وتأتى تأخذ الدين من المخالف لا ، بل خذ من هنا من سلوك الملتزم الذى وجهته إلى دينه .

إذن . . فهذه فسرت لنا أن الإسلام انتشر بواسطة الجماعة التجار الذين كانوا يذهبون إلى كثير من البلاد ، فحين يتعاملون مع الناس يتعاملون بأدب الإسلام ، يتعاملون بوقار الإسلام ، يتعاملون بورع الإسلام .

هذا أمر ملفت ، لماذا ﴿ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ يعنى : لم آت بهذا من عند نفسى ، أنا جئت بهذا لأننى تابع لدين يأمرنى بهذه المسائل .

أمّا الذين ينظرون إلى العملية الأخرى ، التى هى عملية أن يأخذوا

= الله وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث فلما قهرونا وظلمونا وشقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك واخترناك على من سواك ورغبنا فى جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك . . انتهى الشاهد من الحديث . وقال الشيخ شاكر : إسناده صحيح . وذكره الهيثمي فى مجمع الزوائد [٦/ ٢٧ - ٣٠] وقال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير إسحاق وقد صرح بالسماع ، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط : إسناده حسن ، رجاله ثقات رجال الشيخين غير محمد بن إسحاق .

الدين من المخالفين نقول لهم : لا ، لا ، لا ، اذهبوا إلى الدين إذن . إن رأيتم واحدا ، وقال لكم : إننى مسلم ، ثم ناقضتم تصرفه ، فاذهبوا إلى هذا التصرف فى منهج الدين ، أتجدنه أقره أم لم يقره ؟ لا ، الدين جَرَّمه .

ما دام جرمه فهو مخالف .

ولذلك كثير من المفكرين هداهم إلى الإسلام أشياء قد تمر على الناس المسلمين جميعا ولا يلتفتون إليها ، إنما ينظر هكذا فيجد فيها عملية سلوكية جميلة ، لفتت إلى الدين .

النبى صلى الله عليه وسلم كان صحابته يخافون عليه من خصومه ، فكانوا يتناوبون حراسته . ولماذا يتناوبون حراسته ؟

الذي يتناوب حراسة شيء معناه أنه يريد أن يكون المصدر للأخطار . إن كان أحد يريد أن يضربه بالرصاص ، فيكون الذى حوله هو الذى يضرب بالرصاص .

ولماذا تفديه بنفسك ؟ كيف واحد سيضرب بالرصاص ، وواحد آخر جاء ليحرسه ما معنى حارسه ؟ يعنى يكون هو المصد ، إذا جاء له خطر هو الذى يتقبله .

لا شك أن ذلك لأنه واثق أن بقاء من يحافظ عليه خير للفكرة من بقائه .

انظر إلى هذا التسامى العالى .

كل واحد يحب الغير لأنه يعود عليه بالخير .

نقول له : لا ، هذا هو الذى سيعود عليه بالخير أيضا . لأن هذا عندما يموت فى سبيل المحافظة على من أرسله الله رسولاً ليبلغ دعوته ، يكون شهيدا ، ويأخذ كذا ويأخذ كذا . فيكون أيضًا يحب نفسه .

لكن الفكرة فى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتى الناس يحافظون عليه من خصومه .

وهذا هو أيضًا السبب فى أن الصِّدِّيق رضوان اللّه تعالى عليه وهما فى الغار حين وجد شقوقًا نزع من ثيابه حتى سد هذه الشقوق ؟! ألم يضع قدمه فى شق حتى يمنع أن تأتى حشرة من الحشرات تؤذى حضرة النبى صلى اللّه عليه وسلم ، كيف وهي ستؤذيك أنت ؟

قال : لا ، فأنا سأتعوض ، لكن النبي صلى اللّه عليه وسلم لا يتعوض ، نحن نريد أن نحافظ على هذا[1] .

إذن . . الذين يحافظون على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم هذه

---

(١) جاء فى كنز العمال [٣٥٦١٥] عن ضبة بن محصن العنزي قال قلت لعمر بن الخطاب رضي اللّه تعالى عنه : أنت خير من أبى بكر ، فبكى وقال : واللّه لليلة من أبى بكر ويوم خير من عُمَرٍ عمر ، هل لك أن أحدثك بليلته ويومه ؟ قلت : نعم ، يا أمير المؤمنين! قال : أما ليلته فلما خرج رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم هاربا من أهل مكة خرج ليلا فتبعه أبو بكر فجعل يمشي مرة أمامه ومرة خلفه ومرة عن يمينه ومرة عن يساره ، فقال له رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : ما هذا يا أبا بكر ؟ ما أعرف هذا من فعلك ؟ فقال : يا رسول اللّه أذكر الرصد فأكون أمامك ، وأذكر الطلب فأكون خلفك ومرة عن يمينك ومرة عن يسارك ، لا آمن عليك ، فمشى رسول صلى اللّه عليه وسلم ليلته على أطراف أصابعه حتى حفيت رجلاه ، فلما رآه أبو بكر قد حفيت رجلاه حمله على كاهله وجعل يشتد به حتى أتى به فم الغار فأنزله ثم قال : والذى بعثك بالحق لا تدخله حتى أدخله ، فإن كان فيه شيء نزل بي قبلك : فدخل فلم ير شيئا فحمله فأدخله ، وكان فى الغار خرق فيه حيات وأفاعي فخشي أبو بكر أن يخرج منهن شيء يؤذي رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فألقمه قدمه فجعل يضربنه ويلسعنه الحيات والأفاعي وجعلت دموعه تنحدر ورسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول له : يا أبا بكر! لا تحزن إن اللّه معنا ، فأنزل اللّه سكينته طمأنينة لأبي بكر ، فهذه ليلته .

وأما يومه : فلما توفي رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وارتدت العرب فقال بعضهم : نصلي ولا نزكي وقال بعضهم : لا نصلي ولا نزكى ، فأتيته ولا آلُ نصحا فقلت : يا خليفة رسول اللّه تألف الناس وارفق بهم ، فقال : جبار فى الجاهلية خوار فى الإسلام! فى ماذا أتألفهم أبشعر مفتعل أو سحر مفترى ؟ قبض رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وارتفع الوحي فواللّه لو منعوني عقالا مما كانوا يعطون رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لقاتلتهم عليه ؟ فقاتلنا معه ، وكان واللّه رشيد الأمر فهذا يومه .

وعزاه للدينوري فى المجالسة ، وأبو الحسن بن بشران فى فوائده ، والبيهقى فى الدلائل ، واللالكائى فى السنة .

شهادة أنهم آمنوا بأن بقاءه خير للفكرة وللإيمان ولنفوسهم من بقائهم هم .

وبعد ذلك فوجئ هؤلاء بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لهم : « انصرفوا عنى فقد قال الله : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [المائدة : ٦٧] .

قالت المرأة التى أسلمت بهذه الكلمة البسيطة ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ قالت : هذا الرجل ما كانت تقرأ تاريخه على أنه رجل عظيم فقط ، وتعتبره أعظم عظماء الدنيا ؛ لأن الذى عمل هذا الانقلاب فى الدنيا ، وحتى الناس الذين لا يؤمنون بأنه رسول ، فيكون فلتة إيه هذا ؟! لما عملوا المسابقة ألم يطلع هو أول عظيم فى العالم ؟![1]

---

(١) روى الترمذى [٣٠٤٦] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : « كان النبي صلى الله عليه وسلم يحرس حتى نزلت هذه الآية : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه من القبة ، فقال لهم : يا أيها الناس انصرفوا ، فقد عصمني الله » وقال الألبانى : حسن .

وفي تفسير ابن كثير : أى حافظك وناصرك ومؤيدك على أعدائك ومظفرك بهم ، فلا تخف ولا تحزن ، فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يؤذيك . وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم قبل نزول هذه الآية يُحرس .

كما قال الإمام أحمد [٦/ ١٤٠] عن عائشة رضي الله تعالى عنها كانت تحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سهر ذات ليلة وهي إلى جنبه قالت ، فقلت : ما شأنك يا رسول الله ؟ قال : « ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة » ، قالت : فبينا أنا على ذلك إذ سمعت صوت السلاح ، فقال : « من هذا » ؟ فقال : أنا سعد بن مالك ، فقال : « ما جاء بك » ؟ قال : جئت لأحرسك يا رسول الله ، قالت : فسمعت غطيط رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نومه ، أخرجاه فى الصحيحين البخارى [٢٨٥٥] ، ومسلم [٢٤١٠/ ٣٩] .

وفي لفظ : سهر رسول الله ذات ليلة مقدمه المدينة . رواه مسلم [٢٤١٠/ ٤٠] .

يعنى : على أثر هجرته بعد دخوله بعائشة رضي الله عنها وكان ذلك فى سنة ثنتين منها .

ومن عصمة الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم حفظه له من أهل مكة وصناديدها وحسادها ومعانديها ومترفيها ، مع شدة العداوة والبغضة ونصب المحاربة له ليلاً ونهارا ، بما يخلقه الله من الأسباب العظيمة بقدرته وحكمته العظيمة ، فصانه فى ابتداء الرسالة بعمه أبى طالب إذ كان رئيساً مطاعاً كبيرا فى قريش ، وخلق الله فى قلبه محبة طبيعية لرسول الله صلى الله عليه وسلم لا شرعية ، ولو كان أسلم لاجترأ عليه كفارها وكبارها ، ولكن لما كان بينه وبينهم قدر مشترك فى الكفر هابوه واحترموه ، فلما مات عمه « أبو=

أول عظيم ، الذى ينظر له على أنه حتى ليس رسولاً . أيّة عبقرية هذه ؟ الرجل الأمي الذى لم يعرف عنه إنه تعلم ، ولا تثقف ، وبعد ذلك يقود الدنيا هذه كلها .

ولذلك قرأت لرجل فأعجبتنى كلمته ، والله تمنيت له أن يكون مسلما فقال : « إن أعظم عظيم فى الدنيا هو ذلك الرجل الذى لا يزال يحكم ملايين المسلمين وهو ميت فى قبره » .

هذه الكلمة جاءت حصيلة ماذا ؟ حصيلة إعجاب ، والإعجاب حصيلة بحث وتنقيب فى الرجل . وحصيلة الدراسة الواسعة فقال لك : هذا الرجل الذى يتبعه الآن كذا مليون ، والمهم أنهم يتصارعون فى حكم من الأحكام ، فيقول هذا : أقاله رسول الله ؟ فيقول له : نعم قاله ، فيطبقوه . فيكون : يحكم العالم وهو ميت فى قبره ؟! ويوجد ناس يعز عليهم أن يحكموا العالم وهم على عروشهم .

ثم قالت : الرجل الذى يخدع الناس جميعًا لا يمكن أن يخدع نفسه . . كيف ؟

قالت : لو لم يكن الذى قال له : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ هو يعتبره الإله القوى الذى يعمل هذه العملية لم يكن ليصدقه .

لو أن واحدًا آخر مثله قال له : ربنا سيوجد قوة تحفظك قد لا

= طالب » نال منه المشركون أذى يسيرا ، ثم قيض الله له الأنصار فبايعوه على الإسلام ، وعلى أن يتحول إلى دارهم وهي المدينة ، فلما صار إليها منعوه من الأحمر والأسود ، وكلما همّ أحد من المشركين وأهل الكتاب بسوء كاده الله ورد كيده عليه ، كما كاده اليهود بالسحر ، فحماه الله منهم ، وأنزل عليه سورتي المعوذتين دواء لذلك الداء ، ولما سمّه اليهود في ذراع تلك الشاة بخيبر أعلمه الله به وحماه منه ، ولهذا أشياء كثيرة جدا يطول ذكرها . وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة : ٦٧] أى : بلغ أنت والله هو الذى يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، كما قال تعالى : ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة : ٢٧٢] ، وقال : ﴿ إِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ [الرعد : ٤٠] .

يصدقه ، ولكنه سمعها ممن يملكها ، وممن يثق أنه يحمى هذه الكلمة ، وأنه قادر على تنفيذها .

ثم التمست الوسيلة إلى أن تؤمن بدين هذا النبى الذى قال إن الله قد عصمنى ، ولم يخدع نفسه ، فقالت : « فلو أن هذا الرجل كان يخدع الناس جميعا ما خدع نفسه فى حياته » .

إذن . . تصرف بسيط من التصرفات يلفت الناس إليه . وتصرف سيئ ينفر الناس أيضًا من الدين ، ما لم يكن إنسانا مفكرا ، ويذهب إلى الدين من ناحية مبادئه لا من ناحية معتنقيه ، لأنه قد يصادف الفشل فى معتنقه ، ولكنه لا يصادف إلا النجاح فى مبادئه .

إذن . . فالمهمة التى يعرفها كل مسلم لنفسه أنه ساعة يفعل شيئًا غير ملتزم فيه بمنهج الله ينظر إذن : كم صد من الناس ، وكم أثار الشك فى الدين من الناس . فيكون عليه وزر كل ذلك .

ولذلك يحذرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول لنا : كل واحد منكم يا مؤمنين على ثغرة من ثغور الإسلام . يعنى : سادد فجوة ، سادد مكمن خطر . فإياكم أن يؤتى الإسلام من ثغرة واحد منكم .

الرجل الذى أسلم وبعد ذلك رأى المسلمين كان يظن أنه سيجد العالم المثالي فوجد عالما بعيدا جدا عن الإسلام . . فماذا قال ؟

قال هذا التعليق البسيط : الحمد لله الذى هدانى إلى الإسلام قبل أن أعرف المسلمين .

يعنى : إن هو لو عرف المسلمين يمكن كانوا يشككوه فى هذا الدين .

ولذلك أنا أقول دائما : إن الإسلام يأخذ قمم الفكر عند غير المسلمين . يأخذ قمم الفكر لأنهم يذهبون إلى الإسلام من ناحية مبادئه .

بقى شىء آخر يأخذه علينا خصوم الإسلام ، ويحاولون أن يصلوا به

إلى السُذج أو البُسطاء أو الذين لا خميرة إيمانية عندهم تستطيع أن تدفع هذه الوافدات .

ولذلك نأمل من كل ولى أمر مسلم أن يلحظ الناس الذين يتبعونه فى دينه ، من أولاده إن كان أبا أو أما ؛ من شعبه إن كان حاكما ، من عماله إن كان صاحب عمل ويبصرهم بما يمكن أن يقوله خصوم الإسلام عن الإسلام . . لماذا ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى يعرض علينا فى كتابه الكريم المعجز المحكم قضايا الخصوم ويرد عليها ؛ لأنه لو ترك القضايا تفد علينا من غيره ستفد شرسة . ولكن إن أوفدها هو سيوفدها ومعها دليل بطلانها ، فتكون داخلة بدليل البطلان ، إنما الثانية تدخل من غير دليل البطلان .

إذن . . من المصلحة لكل ذى دين أن لا يستنكف أن يعرض القضايا التى يمكن أن تثار ضد الدين ؛ لأنه سيعرضها بلطف ، وسيعرضها ومعها دليلها .

وإذا عرض الشيء ومعه دليله لا ينفرد الشيء بالدخول إلى القلب ، فسيدخل الاثنان معًا . وما دام سيدخل الاثنان معا فيوجد نفع ؛ ولذلك قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً ﴾ ماذا قالوا هم ؟! ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ [الكهف : ٤] هو قال : إنهم قالوا ، لم يفر منها القرآن ، لكن قال : ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ . ثم بعد ذلك يرد عليها ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ . وجاء القرآن أيضاً بزعمهم : ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ جاء بأمر الدهريين وعرضه علينا . إذن . . القرآن يأتى بالرأى ثم يرد عليه .

وهذه العملية ؛ العالم اهتدى إليها بطبيعته فى أموره ؛ فساعة يسمع عن وافدة مرض ماذا يصنع ؟ لا يقول : نبعد عن المرض ؛ لا ، بل هو الذى يذهب فيأتى بميكروب المرض ، ويعطيه للأصحاء ، الذى نسميه نحن التحصين أو التطعيم أو إيجاد المناعة .

الإنسان الحريص منا على حياة الكائن وصحته هو الذى يأتى بالمكروب.. لماذا ؟

قال : لأننى عندما آتى بالمكروب ، سآتى به ليس مكروبًا شرسًا ، بل ميكروبا خاملا ، فلما أُعطيه سيتفاعل مع الجسم ، فيتربى عند الجسم المناعة ، ويقدر يرده عندما يأتى بحق .

إذن.. فالمسلمون - أولياء أمورهم - مطالبون : الملوك ، الأمراء ، الرؤساء ، العلماء ، المدرسون ، أولياء الأمور فى البيوت ، عليهم إنهم يعرضوا القضايا الوافدة من جهاتهم هم ، ولا يدعوا القضايا الوافدة تفد إليهم من ورائنا ؛ لأنها لو وفدت إليهم من ورائنا - كما قلنا - إنها ستفد شرسة ومادامت تفد شرسة وليس عنده المناعة ، أعطيها له وأعطى له مناعتها ، فإذا ما وفدت عليه يقول : أنا أعرفها .

إذن.. ساعة تأتى له حقيقة.. أو واحد يكلمه فيها يقول له : لا ، هذه ردها كذا ، هذه تكون كذا ، تكون كذا [1] .

---

(١) روى البخارى [٢٤٠٩] ومسلم [١٨٢٩/ ٢٠] عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : كلكم راع ومسؤول عن رعيته ، فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته ، والرجل فى أهله راع وهو مسؤول عن رعيته ، والمرأة فى بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيتها ، والخادم فى مال سيده راع وهو مسؤول عن رعيته . قال : فسمعت هؤلاء من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحسب النبي صلى الله عليه وسلم قال : والرجل فى مال أبيه راع وهو مسؤول عن رعيته ، فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته .

قال الحافظ فى الفتح : قوله : « ألا كلكم راع » كذا فيه ، و « ألا » بتخفيف اللام حرف افتتاح ، وسقطت من رواية نافع وسالم عن ابن عمر ، والراعي هو الحافظ المؤتمن الملتزم صلاح ما أؤتمن على حفظه فهو مطلوب بالعدل فيه والقيام بمصالحه .

قوله : « فالإمام الذى على الناس » أى : الإمام الأعظم ، ووقع فى رواية عبيد الله بن عمر الماضية فى العتق « فالأمير » بدل « الإمام » وكذا فى رواية موسى بن عقبة فى النكاح ، ولم يقل : « الذي على الناس » .

قوله : « راع وهو مسؤول عن رعيته » فى رواية سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه الماضية فى الجمعة « الإمام راع ومسؤول عن رعيته » وكذا فى الجميع بحذف « وهو » وهي=

= مقدرة ، وثبتت في الاستقراض .

قوله : « والرجل راع على أهل بيته » في رواية سالم « في أهل بيته » .

قوله : « والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده » في رواية عبيد الله بن عمر « على بيت بعلها » وفي رواية سالم « في بيت زوجها » ومثله لموسى لكن قال « على » .

قوله : « وعبد الرجل راع على مال سيده » في رواية سالم « والخادم راع في مال سيده » وفي رواية عبيد الله : « والعبد » بدل الخادم ، وزاد سالم في روايته وحسبت أنه قال : « وفي رواية الاستقراض » سمعت هؤلاء من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحسب النبي صلى الله عليه وسلم قال : « والرجل راع في مال أبيه ومسؤول عن رعيته » .

قال الخطابي : اشتركوا أي الإمام والرجل ومن ذكر في التسمية أي في الوصف بالراعي ومعانيهم مختلفة ، فرعاية الإمام الأعظم حياطة الشريعة بإقامة الحدود والعدل في الحكم ، ورعاية الرجل أهله سياسته لأمرهم وإيصالهم حقوقهم ، ورعاية المرأة تدبير أمر البيت والأولاد والخدم والنصيحة للزوج في كل ذلك ، ورعاية الخادم حفظ ما تحت يده والقيام بما يجب عليه من خدمته .

قوله : « ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » في رواية أيوب في النكاح مثله .

وفي رواية سالم في الجمعة : « وكلكم » وفي الاستقراض « فكلكم » ومثله في رواية نافع .

قال الطيبي : في هذا الحديث أن الراعي ليس مطلوبا لذاته وإنما أقيم لحفظ ما استرعاه المالك فينبغي أن لا يتصرف إلا بما أذن الشارع فيه وهو تمثيل ليس في الباب ألطف ولا أجمع ولا أبلغ منه ، فإنه أجمل أولا ثم فصل وأتى بحرف التنبيه مكررا ، قال والفاء في قوله : « ألا فكلكم » جواب شرط محذوف ، وختم ما يشبه الفذلكة إشارة إلى استيفاء التفصيل .

وقال غيره : دخل في هذا العموم المنفرد الذي لا زوج له ولا خادم ولا ولد فإنه يصدق عليه أنه راع على جوارحه حتى يعمل المأمورات ويجتنب المنهيات فعلا ونطقا واعتقادا فجوارحه وقواه وحواسه رعيته ، ولا يلزم من الاتصاف بكونه راعيا أن لا يكون مرعيا باعتبار آخر .

وجاء في حديث أنس مثل حديث ابن عمر فزاد في آخره : « فأعدوا للمسألة جوابا ، قالوا : وما جوابها ؟ قال : أعمال البر أخرجه ابن عدي والطبراني في « الأوسط » وسنده حسن .

وله من حديث أبي هريرة : « ما من راع إلا يسأل يوم القيامة أقام أمر الله أم أضاعه » .

ولابن عدي بسند صحيح عن أنس رضي الله تعالى عنه : « إن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ ذلك أو ضيعه » واستدل به على أن المكلف يؤاخذ بالتقصير في أمر من هو في حكمه ، وترجم له في النكاح « باب قوا أنفسكم وأهليكم نارا » وعلى أن للعبد أن=

= يتصرف في مال سيده بإذنه وكذا المرأة والولد ، وترجم لكراهة التطاول على الرقيق وتقدم توجيهه هناك .

وفي هذا الحديث بيان كذب الخبر الذى افتراه بعض المتعصبون لبني أمية قرأت في « كتاب القضاء » لأبي علي الكرابيسي أنبأنا الشافعي عن عمه هو محمد بن علي قال دخل ابن شهاب على الوليد بن عبد الملك فسأله عن حديث « إن الله إذا استرعى عبدا الخلافة كتب له الحسنات ولم يكتب له السيئات » فقال له : هذا كذب ، ثم تلا ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ - إلى قوله - بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ فقال الوليد : إن الناس ليغروننا عن ديننا .

وزر الضلال.. ووزر الإضلال

انتهينا في الفصل السابق إلى أن من مصلحة أولياء أمور المسلمين لصالح إسلامهم أن يعرضوا على من يتولون تربيتهم وتنشئتهم الفكر المناقض للإسلام ، حتى لا يدعوا فرصة للفكر المهاجم أن يهاجم من خلفهم ؛ لأنه إن هاجم من خلفهم هاجم بشراسة ، وهاجم وليس معه دليل نقضه .

وقلنا : إن هذه القضية نصنعها نحن في أمورنا المادية حين نتخوف على أبنائنا مرضًا من الأمراض الفتاكة فقبل أن يأتي إليهم بشراسته نأتي بالميكروب ونضعه ، ولكنا نضعه في درجة خاملة ، حتى تُربى في الجسم مناعة إن جاء هذا الميكروب يستطيع بالدُّربة والرياضة أن يقف أمام الداء .

وكثير من الناس يستنكفون أن يذكروا ذلك لأبنائهم وهم يحاولون بذلك إبعادهم - وتلك ميزة أيضًا - ولكنا نقول : إنه ليس من الممكن الآن أن نحجب عن الناشئة مصادر المعلومات التي يعلمون بها ، فوسائل الإعلام الآن وسائل شتى ، ولم تعد تقتصر على أفواه الآباء وأفواه الأمهات ، ولا مناهج التدريس ، بل هناك وسائل متعددة ، فإن احتطت أن لا تفد هذه الوافدة على آذان أبنائك الذين تقوم بتربيتهم ، فإنك لا تستطيع .

وقلنا : إن مما تعرضت له الكتب التي وصلتنا أيضا أنهم يقولون : إن القرآن الذي يرفعونه « أي : المسلمون » إلى مرتبة التقديس وإنه من الإله الحكيم ، يقولون « أي : كتبة هذه الكتب » بأنه ليس من الإله ولا شيء لأن الإله لا يمكن أن يتضارب في قوله ، والقرآن متضارب في كثير من آياته ، وعرضوا عشر آيات ظاهرها بزعمهم التضارب ؛ لأنهم يعرضونها بغير رياضة العربي ذي الملكة الذي يفهم الأسلوب ويفهم مراميه .

فأول ما عرضوا ، عرضوا قضية قول الحق سبحانه وتعالى ليشككوا فى القرآن ذاته ، وهي قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ قالوا : تلك قضية قرآنية والمخطوط اسمه : « **سفر البرهان فى متناقضات القرآن** » ، فقالوا :

إن القرآن يقول : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ ثم يسهو - هكذا عبارتهم لعنهم الله - ثم يسهو محمد أنه قال هذه الآية فينطلق لسانه بآية أخرى تناقض هذه الآية : ﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم ﴾ [النحل : ٢٥] ، فقال : هذا يقول : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ ثم يحملهم أوزارًا على أوزارهم! .

هؤلاء معذورون لأنهم لم يتمرسوا بفهم الأسلوب العربى ، أو هم فاهمون ولكنهم يحاولون أن يدخلوا على الناس بظاهرية الدليل ، لأنهم سيخاطبون ناشئة ، هذه الناشئة قد لا يكون عندها بصر فى أساليب اللغة .

فنقول لهم : نعم ، لا تضارب فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ لأن الدين الإسلامى دين ذاتى ، ذاتى بمعنى : أن الإنسان لا يعاقب إلا عن فعل فعله باختياره وغير مُكره عليه فى زمن يكون التكليف فيه موجودًا .

والتكليف يكون فى البالغ العاقل وله شروطه الخاصة به ؛ مما يدل على احتياطات التشريع الإسلامى فى قضية الجزاء ومنها :

أولاً : لم يُكلف إلا مَن نضج عقله ، وآية نضج العقل : استكمال البنية الإنسانية بالبلوغ .

هذه واحدة ؛ لأنه لو كُلِّف قبل ذلك ثم طرأ عليه البلوغ ، والبلوغ له ظاهرة جنسية عارمة ؛ ربما قال : إن هذه لم تكن عندى ساعة تعاقدت على الإيمان ، وجدت فى جسمى أشياء .

فنقول له : لا ، إذا تنضج .

ونحن عندنا : النضج حتى فى الحيوان وحتى فى النبات ، النضج فى كل شىء هو : أن يقدر الإنسان بذاتيته أو الكائن الحى بذاتيته على أن ينجب مثله . هذا هو النضج ، وهذا هو البلوغ .

ولذلك من رحمة الله تعالى بنا من أجل بقاء الأنواع التى تخدمنا أن الثمار التى نأكلها - كل الثمار التى نأكلها - هى فى أصل تكوينها لحماية البذرة التى تبقى نوع الثمرة . لا تنضج ولا تكون حلوة مشتهاة إلا إذا تم نضج البذرة فيها .

فأنت - مثلاً - إذا شققت بطيخة ، إن وجدت - لبها - لا زال أبيض ، تجدها ليست حلوة الطعم.. لماذا ؟ لأن البذرة التى تنجب مثلها لا زالت لم تكتمل ، ولكن إذا وجدت بذرتها سوداء يكون قد اكتمل نضجها ، وتجد البطيخة حلوة الطعم شهية .

إذن.. حَمَىٰ الله بقاء النوع بأن الثمرة لا تحلو لمقتطفها إلا إذا نضجت بذرتها .

كذلك الإنسان ، لا يمكن أن ينضج إلا إذا كانت عنده القدرة الذاتية على إبقاء نوعه ، وهذا هو البلوغ كما نقول . فهنا يأتى التكليف .

ثانيا : أن يكون مختارًا ، فإذا أكرهته قوة أقوى منه على الفعل يُرفع عنه التكليف .

ثالثًا : أن تكون أداة الاختيار عنده بين البديلات سليمة : أى : عاقل .

فما دام عنده هذا الاحتياط حتى يُرتب الجزاء فمعناه أنه متحر للعدالة .

وما دام متحريا للعدالة ؛ فأول شىء أننى لا أحمله وزر سواه .

فأنا أشترط فيه هو نفسه أشياء فى ذاته حتى أضمن له عدالة الجزاء ، لا آتى له بوزر ، لكن لاحظ أن من أعمال الإنسان فى الوزر.. الوزر الذى يفعله - صحيح - ولكن الوزر الذى يفعله قد يظهر أثر فعله فى غيره .

فالذي يضل يضل بذاته ، من غير أن يتعدى ضرره إلى غيره .

ولكنه حين يُريد أن ينقل ضلاله إلى الغير ، صار له عملان :

الأول : أنه ضل فى ذاته .

وعمل آخر هو : أنه حاول إضلال غيره .

فحين يحاول إضلال غيره يكون عملاً جديدًا .

إذن . . عندما يحمل وزره : أى : وزر ضلاله فى ذاته .

ويحمل أوزارًا مع أوزار وزر أعماله فى أنه أضل الغير .

ففيه فرق بين وزر الضلال ووزر الإضلال .

إذن . . هم ليسوا فاهمين .

ولذلك يقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها » . والذى يسن سنة سيئة ؟! يكون عليه وزرها ووزر من عمل بها . . لماذا ؟ لأنه سن : أى : أصبحت قدوة منظورة وما دامت قدوة منظورة فى السيئة ؛ يكون هو الذى جعل [1] .

ولذلك : أمرنا بستر بعض الجرائم عندنا فى التشريع الإسلامى ، فإننا لا نتتبع الوزر حتى لا نشيعها ، لأننا عندما نشيعها تصبح أسوة .

---

(١) روى ابن ماجه [٢٠٧] عَنْ أَبِي جحيفة رضي الله تعالى عنه ؛ قَالَ : قَالَ رَسُول اللَّه صَلى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَمْ : « من سن سنة حسنة فعُمل بها بعده ، كَانَ لَهُ أجره ومثل أجورهم من غَيْر أن ينقص من أجورهم شيئا . ومن سن سنة سيئة ، فعُمل بها بعده ، كَانَ عَلَيْهِ وزره ومثل أوزارهم من غَيْر أن ينقص من أوزارهم شيئاً » . وقال الألبانى : حسن صحيح .
وروى مسلم [١٠١٧/ ١٥] واللفظ له ، وابن ماجه [٢٠٣] والترمذى [٢٦٧٥] عن جرير رضي الله تعالى عنه جاء ناس من الأعراب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ عليهم الصوف ؛ فرأى سوء حالهم قد أصابتهم حاجة . فحث الناس على الصدقة ؛ فأبطأوا عنه ؛ حتى رؤي ذلك فى وجهه . قال : ثم إن رجلا من الأنصار جاء بصرة من ورق . ثم جاء آخر . ثم تتابعوا حتى عرف السرور فى وجهه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سن فى الإسلام سنة حسنة ، فعمل بها بعده ، كتب له مثل أجر من عمل بها . ولا ينقص من أجورهم شيء . ومن سن فى الإسلام سنة سيئة ، فعمل بها بعده ، كتب عليه مثل وزر من عمل بها ، ولا ينقص من أوزارهم شيء » .

فهو يدرؤها ويقول لك : استر ، لا تُنقب على عيوب الناس[1] .

الذي يتبجح بجريمة هذه تكون مسألة أُخرى .

إذن . . حتى لا توجد الأُسوة .

إذن . . لو وجدت له الأُسوة يكون من الذى سنها وجعل الناس تتأسى به ؟

صاحب السيئة .

إذن . . فالمسألة مسألة منقوضة التى هى : البند الأول من كتابه الذى هو « سفر البرهان فى متناقضات القرآن » .

❁ ❁ ❁

---

(١) روى الإمام أحمد فى المسند [٤/ ١٧٤] عن عقبة بن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من ستر مؤمنا كان كمن أحيا موءودة من قبرها . قال الشيخ شعيب الأرناؤوط : إسناده ضعيف لسوء حفظ ابن لهيعة ، ولجهالة مولى عقبة بن عامر .

وروى الإمام أحمد فى المسند [٤/ ١٥٩] قال ابن جريج : ركب أبو أيوب إلى عقبة ابن عامر رضي الله تعالى عنهما إلى مصر فقال : إنى سائلك عن أمر لم يبق ممن حضره مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أنا وأنت كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى ستر المؤمن ؟ فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من ستر مؤمنا فى الدنيا على عورة ستره الله عز وجل يوم القيامة ، فرجع إلى المدينة فما حل رحله يحدث هذا الحديث . قال الشيخ شعيب الأرناؤوط : المرفوع منه صحيح لغيره ، وهذا إسناد ضعيف لانقطاعه ، فإن ابن جريج لم يدرك أحدا من الصحابة .

وفي الحديث المتفق عليه عند البخارى [٢٤٤٢] ومسلم [٥٨/٢٥٨٠] عن عبد الله ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة .

العقوق الأبوى
والفرق بين المودة.. والمعروف

وبعد ذلك يعرض قضية أخرى ، وهي قضية : العقوق الأبوى .

ما العقوق الأبوى هذا ؟

قالوا : إن القرآن يحض الناس على أن تعامل آباءها معاملة قاسية . كيف ؟

فعرضوا الآية : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ [المجادلة : ٢٢]

وقالوا : يمنع الوالد بودّ ابنه ، بينما يأتى فى آيات أخرى - وقالوا هكذا - ويؤخذ محمد بعاطفة من حنان تجعله ساميا يقول : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان : ١٥]، **فكيف مرة يقول :** ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ ﴾ ، **وبعد ذلك يقول :** ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ ؟!

نقول له : وما ذنبنا نحن إذا كان الذى يتكلم فى أسلوب القرآن لا يفهم العربية ، لا بسليقة الملكة ، ولا بإتقان الصنعة .

نريد أن نعرف منك فى نظرك : ما هو الوُدّ أولاً ، وما هو المعروف ثانيًا ؟

فالآيتان لم تردا على شىء واحد ، لم يأت هنا : « الود » وهنا : « الود » . إنما جاءت فى آية : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ ﴾ جاء « الوُدّ » هنا : ﴿ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ ﴾ يعنى : ولو إذا كان أبوه فلا تودّه .

الآية الثانية لم تأت بلفظ : « ود » ، الآية الثانية جاءت بلفظ : « معروف » ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان : ١٥] . نرى المعروف ما هو ؟

إذن . . لو أن الآيتين تواردتا على لفظ واحد ، لكان من الممكن أن يقال تعارض .

لكن الآيتين كل آية جاءت بلفظ ، هذه بلفظ « الود » وهذه بلفظ « المعروف » .

فما هو الفارق بين الود والمعروف ؟

الوُدُّ حب القلب ، وحب القلب يدعو إلى انجذاب القالب بتبعاته ، تُحسن إليه ، تحبه ، تظل جالسا معه ، تعانقه عند مقابلته .

لكن المعروف : ليس الحب ، بل المعروف : بذل القالب .

والمعروف تصنعه مع من تُحب ومع من لا تحب [1] .

فالممنوع من الآباء أن يكون لك ودّ خالص بهم إذا كانوا كافرين ، ليس بحب إذن ، لكن لا أنهاك أن تكون صاحب معروف ، وإلا أنت تكون صاحب معروف حتى مع أعدائك .

إذن . . الممنوع هنا : الود ، وهو عملية قلبية ، والمأمور به هناك : المعروف ، والمعروف يكون مع من تحب ومع من لا تحب ، وهو مع الذى تحب لا يُسمى معروفا ، ليس معروفا هذا . إذن ليسوا هم فاهمين .

---

(١) ذكره العجلوني فى كشف الخفاء [٣٨٤] بلفظ : اصنع المعروف إلى من هو أهله وإلى من ليس أهله ، فإن أصبت أهله فهو أهلُه وإن لم تصب أهلَه فأنت من أهلِه . وقال : رواه القضاعي مرسلا والدارقطني فى المستجاد ، ورواه الخطيب فى رواه مالك عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما .

وابن النجار فى تاريخه عن علي رضي الله تعالى عنه بلفظ : اصنع المعروف إلى أهله وإلى غير أهله ، فإن أصبت أهله أصبت من هو أهله ، وإذا لم تصب أهله كنت أنت من أهله . وذكره السخاوي فى المقاصد الحسنة [١٢٢] وقال : وهو مرسل . . . وقد أوردت من الأحاديث فى هذا المعنى جملة فى كتاب الجواهر المجموعة .

ولذلك الود القلبى يترتب عليه المعروف ، لكن المعروف لا يترتب عليه الود القلبى . بدليل إنه فى وقائع الإسلام ، وقائع كثيرة .

فمثلاً سعد بن أبى وقاص حينما أسلم ماذا فعلت أُمه ؟ حينما أسلم أُمه حلفت لا تأكل ، ولا تشرب ، ولاتغتسل ، ولا تقوم من الشمس حتى يرتد إلى دينهم .

قال لهم : دعوها فإن آذاها القُمَّل اغتسلت ، وإن عضَّها الجوع أكلت ، وإن أصابها الظمأ شربت ، وقال لها : يا أُمى! والله لو أن لك مائة نفس - مائة روح يعنى - ثم فاضت منك نفسا نفسا على أن أترك دين محمد ما تركته [1] .

كيف تغلب هذا الأمر ؟ ما الذى صنعه ؟ إنما صنعه الإيمان .

❁ ❁ ❁

(١) روى الذهبي فى سير أعلام النبلاء : عَنْ أَبِي عُثْمَانَ أَنَّ سَعْدًا رضي الله تعالى عنه قَالَ : نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِيَّ : ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ [العنكبوت : ٨] .

قَالَ : كُنْتُ بَرًّا بِأُمِّي ، فَلَمَّا أَسْلَمْتُ ، قَالَتْ : يَا سَعْدُ! مَا هَذَا الدِّينُ الَّذِي قَدْ أَحْدَثْتَ ؟ لَتَدَعَنَّ دِينَكَ هَذَا ، أَوْ لَا آكُلُ ، وَلَا أَشْرَبُ حَتَّى أَمُوتَ ، فَتُعَيَّرَ بِي ، فَيُقَالُ : يَا قَاتِلَ أُمِّهِ .

قُلْتُ : لَا تَفْعَلِي يَا أُمَّهْ ، إِنِّي لَا أَدَعُ دِينِي هَذَا لِشَيْءٍ . فَمَكَثَتْ يَوْماً لَا تَأْكُلُ وَلَا تَشْرَبُ وَلَيْلَةً ، وَأَصْبَحَتْ وَقَدْ جُهِدَتْ . فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ ، قُلْتُ : يَا أُمَّهْ! تَعْلَمِينَ - وَاللهِ - لَوْ كَانَ لَكِ مَائَةُ نَفْسٍ ، فَخَرَجَتْ نَفْساً نَفْساً ، مَا تَرَكْتُ دِينِي ، إِنْ شِئْتِ فَكُلِي أَوْ لَا تَأْكُلِي . فَلَمَّا رَأَتْ ذَلِكَ ، أَكَلَتْ . وقال رَوَاهُ : أَبُو يَعْلَى فِي مُسْنَدِهِ [١/ ١١٠] .

الحقيقة القرآنية.. والحقيقة الكونية

انتهينا فى الفصل السابق من الرد على مفترى من مفتريات خصوم الإسلام فى أن القرآن الكريم نظر إليه المؤمنون به نظرة تقديس فلم يفتحوا عيونهم على ما فيه من متناقضات . وعرضوا لآية من آياته ، وجاءوا بآية أخرى ظاهرها أنها تتعارض ، **وقلنا** : إنهم لم يفرقوا بين المعروف وبين الود .

فالمطلوب فى آية : ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ العملية الإحسانية التى تضمن للوالد بقاء حياته ولكن المنهى عنه فى : « الود » هو : محبة القلب وانشغاله بالمحبوب .

وكل وُدٍّ ينشأ عنه معروف . . وليس كل معروف ينشأ عنه وُدّ .

وقلنا : إن الود عملية قلبية ، هذه العملية القلبية محكومة بقانون : إن الحب لا يتسع لأمرين أبدا ، وهو أن الله تعالى يقول : ﴿ مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ [الأحزاب : ٤] .

ولذلك حينما يطلب الله من المؤمن أن لا يجعل حب الدنيا فى قلبه ؛ لأن الله يجعل قلب المؤمن خالصًا له ، فهو يطلب منا أن لا نجعل فى القلب معه شيئًا سواه .

والدليل على ذلك أن الذين آمنوا نزعوا من قلوبهم الوُدَّ المطلوب ولو الوُدّ الغازى ، ولو الود العاطفى لمن يحبوهم .

فضربنا مثلاً بسعد بن أبى وقاص ، وهناك مثل آخر يبين لك الفارق بين وُدّ لإيمان ، وود لإنسان .

ففى غزوة بدر كان سيدنا أبو بكر رضي الله تعالى عنه فى جانب النبى

صلى الله عليه وسلم ، وابن له كان لا يزال مع الكافرين يحارب فى صفوف الكافرين ، يحارب فى صف ضد صف أبيه . وانتهت المعركة وفعلاً أسلم ابنه بعد ذلك .

قال الولد لأبيه : يا أبت لقد رأيتك يوم بدر ، فعزفت عنك مخافة أن ينالك سيفى .

قال : يا بُنى أنا والله لو تراءيت لي فى المعركة لقتلتك .

انظروا إلى الانفعالين.. كلاهما صادق فى انفعاله ؛ لأن أبا بكر رضي الله تعالى عنه يُقارن بين بنوة ورُبوبية ، فيرجح عنده ميزان الربوبية .

ولكن ابنه الذى تراءى له أبوه فى المعركة فلوى نفسه عنه يقارن بين أبيه وبين ماذا ؟ لا يوجد « ماذا » ليُقارن به .

ولو كان مؤمنا بآلهته ، ولو كان مؤمنا بأصنامه ، ولو كان مؤمنا بالآلهة التى يدين لها كفار قريش الذين يحارب معهم وفى صفوفهم ، لقارن بينهم وبين أبيه ، فكانت ترجح عنده ، ولكنه تبين أنه لا يؤمن بها . وحجتهم ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٢] ، وإلا لو كان مؤمنا بها لدخلت هذه المسألة فى المقارنة كما أدخل أبو بكر رضي الله تعالى عنه فى المقارنة إيمانه بربه وعاطفته نحو ابنه .

كل ذلك ليدلنا على أن الحب الإيمانى حين يتمكن فى النفس لا يوجد فراغ فيه لأن يحب شيئا آخر فضلاً عن أن يكون مناقضا للإيمان .

نحن نلاحظ أن أم حبيبة بنت أبى سفيان : أبو سفيان ليس رجلاً « هملاً » فى قومه ، بل هو رجل له مكانته وسيادته ، يقولون : سيد العير .

أم حبيبة ابنته حينما أسلمت ولما هاجرت مع زوجها ، أرجفوا.. وإنها كانت تحب زوجها ، فلما آمن آمنت ، وهاجر هاجرت معه . يشاء الله أن يُخلصها للحب له وللإيمان به ، فيأتى زوجها وهم فى الحبشة ويغريه واحد من هناك بالنصرانية فيتنصر ، ويشاء الله أن يتنصر زوجها وأن تظل هى على

دين الإسلام ، وهي وحيدة ، حتى ينفى أن يقال إنها آمنت لأن زوجها آمن ، أو هاجرت مع زوجها لأنه آمن فيشاء الله سبحانه أن يدخل زوجها إلى دين النصرانية وهي تظل وحيدة .

لذلك لم يكن لها من مكافأة عند الله وعند رسول الله إلا أن يطمئنها رسول الله على أن العوض عند الله ، فعوضها عن زوجها الذى تنصر بأن تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم ينتظر رسول الله إلى أن تذهب إلى هناك ليتزوجها ، فيجعل النجاشى هو الذى يعقد عليها لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يعجل لها بالعوض وهي فى مكانها لأنها وحيدة ، وزوجها تنصر ، ولم تتبعه ، فما الذى يؤنسها ؟ إنه أراد أن يؤنسها بأنها أصبحت أم المؤمنين .

وحين تصبح أم المؤمنين يكون قد ألزم كل المهاجرين معها من المسلمين هناك بأن يكونوا فى خدمتها .

وبعد ذلك تأتى ويعلم أبوها أنها جاءت وذهبت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبحنان الأبوة يذهب إليها ، فلا تجعل أبا سفيان يقرب وسادة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو سفيان من هو ؟ (١)

ذلك هو ما يفعله الإيمان فى القلوب . فلا يوجد وُدٌّ فى قلب المؤمن لغير الله وغير من يشترك معه فى حب الله .

وضربنا أيضا مثلاً لهذا الود حين يُفقد ويأتى ود آخر من جنس إيمانى ، الود العاطفى ، الود الدموى ، الود الجسمى ، كل هذا يذهب ويأتى ود جديد اسمه وُدّ إيمانى ، فى مسألة مصعب بن عمير وقد كانوا يسمونه : « فتى قريش المدلل » فأهله أغنياء ، يعيش فى نعيم ، وفى ترف ، وبعد

(١) ذكر ابن حجر فى الإصابة [٦٣٨/٧] عن الزهري قال قدم أبو سفيان المدينة فأراد أن يزيد فى الهدنة فدخل على ابنته أم حبيبة فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم طوته دونه فقال يا بنية أرغبت بهذا الفراش عني أم بي عنه ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت امرؤ نجس مشرك . فقال لقد أصابك بعدي شر .

ذلك يشاء الله له أن يُسلم فيُسلم ، وبعد ذلك يكون ما يكون ، فيختاره رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن يكون أول داع مبشر بالإسلام فى المدينة .

فعاش على صدف العيش ، فلما ذهب رسول الله إلى المدينة وجده يلبس فراء كبش . . فيقول : انظروا ماذا فعل الإسلام بهذا ، رأيتُه فى مكة وهو كذا وكذا ، ولكن حب الله وحب رسول الله صنع به ما صنع [١] .

الشاهد أنه التقى فى معركة بدر مع الكفار ، وفى صَف الكفار أخوه . أخوه اسمه : « أبو عزيز » . فلما دخل أبو عزيز المعركة مع الكفار وقع أسيرًا فى يد أنصارى اسمه « أبو اليسر » . فلما وقع أسيرا مر عليه أخوه مصعب ، فالتفت إلى أبى اليسر وقال : يا أبا اليُسر - الأنصارى الذى أسر أخاه - اشدد على أسيرك فإن أمه غنية وستفديه بمال كثير .

فيقول له أخوه أبو عزيز : أهذه وصاتك بأخيك ؟

قال : هذا أخى ولست أنت .

هذه هى الأخوة الإيمانية . ذلك هو الوُدّ [٢] .

---

(١) روى الحاكم فى المستدرك [٢/ ٢٢١/ ٤٩٠٤] عن إبراهيم بن محمد العبدرى ، عن أبيه قال : كان مصعب بن عمير فتى مكة شبابا وجمالا ، وكان أبواه يحبانه ، وكانت أمه تكسوه أحسن ما يكون من الثياب ، وأرقه ، وكان أعطر أهل مكة . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكره ويقول : « ما رأيت بمكة أحسن لمة ، ولا أرق حلة ، ولا أنعم نعمة ، من مصعب بن عمير » .

وروى البخارى [١٢٧٦] ، ومسلم [٩٤٠/ ٤٤] عن خباب رضي الله تعالى عنه قال : هاجرنا مع النبي صلى الله عليه وسلم نلتمس وجه الله ، فوقع أجرنا على الله ، فمنا من مات ولم يأكل من أجره شيئا ، منهم مصعب بن عمير ، ومنا من أينعت له ثمرته ، فهو يهدبها ، قتل يوم أحد ، فلم نجد ما نكفنه إلا بردة ، إذا غطينا بها رأسه خرجت رجلاه ، وإذا غطينا رجليه خرج رأسه ، فأمرنا النبي صلى الله عليه وسلم أن نغطي رأسه ، وأن نجعل على رجليه من الإذخر .

(٢) قال ابن إسحاق فى السيرة النبوية [٣/ ٣٧٤ - ٣٧٥] : حدثني نبيه بن وهب أخو بني عبد الدار : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أقبل بالأسارى فرقهم بين أصحابه ، =

فالذين يجعلون الود كالمعروف نقول لهم : أنتم لا تفهمون الوُدَّ فى اللّه . الود فى اللّه : عملٌ قلبى بحت .

والمعروف : عمل إحسان .

والإحسان يتأتى إلى من تحب وإلى من لا تحب .

وجاءوا بالفقرة الثانية فى متناقضات القرآن يقولون : إن القرآن - يسمونه قرآن محمد - تعرض إلى قضية كونية ما كان أغناه عن أن يتعرض لها ؛ لأنها ليست مهمة فى قضية الدين ، ولكن شاء اللّه وشاءت ربوبية المسيح!!! أن يوقعه فيها حتى تكون حجة عليه و . . إلخ .

قالوا : إن القرآن حين يتكلم عن خلق السماوات والأرض يتكلم أنه خلقها فى ستة أيام ، كل آيات الإجمال فى القرآن تدل على أنه خلقها فى ستة أيام .

هذا يعطينا أن خصوم الإسلام يدرسون الإسلام ، ويصنعون له الإحصائيات التى يستطيعون بها أن يُعلمونا أنهم لم يقولوا ذلك إلا عن دراسة ولينفذوا إلى أشياء ربما لم ينفذ إليها كثيرمن المؤمنين بالقرآن .

= وقال : « استوصوا بهم خيرا » .

قال : وكان أبو عزيز بن عمير بن هاشم أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه فى الأسارى ، قال أبو عزيز : مرَّ بي أخي مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرني فقال : شد يديك به فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه منك .

قال أبو عزيز : فكنت فى رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إياهم بنا ما تقع فى يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها فأستحي فأردها فيردها علي ما يمسها .

قال ابن هشام : وكان أبو عزيز هذا صاحب لواء المشركين ببدر بعد النضر بن الحارث ، ولما قال أخوه مصعب لأبي اليسر - وهو الذى أسره - ما قال : قال له أبو عزيز : يا أخي هذه وصاتك بي ؟

فقال له مصعب : إنه أخي دونك فسألت أمه عن أغلى ما فدى به قرشي فقيل لها : أربعة آلاف درهم ، فبعثت بأربعة آلاف درهم ففدته بها .

لأن المؤمنين بالقرآن حين يقرأون القرآن يقرأون بقداسة أنه كلام الإله .

السماع للقرآن على أنه كلام الإله يسد منافذ النقد عند المسلم .

ومادام يسد منافذ النقد عند المسلم فيقول حين تمر عليه الآيات : ربنا له مُراد فيها ، فكيف أبحث أنا فيها . . تمر هكذا .

ولذلك كثير من خصوم الإسلام هم الذين ينبهوننا إلى جمال قضايا القرآن . لأن نبشهم على هذه الأشياء ؛ كأنها مقصودة لله . حتى المغفلون من الكفار يقعون فيها ، وحتى المؤمنون بنورهم يهتدون إلى حلولها . ولذلك الشاعر عندما قال :

وإذا أراد اللّهُ نَشْر فضيلةٍ طُوِيَتْ أتاح لها لسان حسود[1]

إذن . . الحسود هو الذى ينبه على الفضيلة . وما دام الحسود سينبه على الفضيلة فإن الذى لم يكن حسودًا يمكن أنه لم يكن آخذًا باله منها .

إذن . . المطبات التى عملها ربنا لأهل الكفر - إذا جاز هذا التعبير - ، إنه يُضخم لهم عملية فيقولون فيها تعارض ، حتى يُمدُّ أهل الإيمان بالردود . فلما يُمد أهل الإيمان بالردود ، يبدو جمال الشىء .

إن المفترين يقولون : إن القرآن ينظر إليه المسلمون نظرة قداسة ، ولذلك لا تتفتح عيونهم إلى نقد ما فيه من تعارضات .

ثم أوردوا آية قالوا فيها : « ما كان أغنى محمدا أن يقول هذه المسألة لأنها لا تتعرض لإنشاء حكم من الأحكام ، ولكن الرب وبين قوسين « المسيح » أغفله عن ذلك حتى يوجد فى الكلام - الذى يقول إنه منسوب إلى الله - تعارض ، وإذا ظهر أن فيه تعارضا فيكون قد كذب فى أن الكتاب منسوب إلى الله .

---

(١) القائل : هو الشاعر أبو تمام .

وقلنا : إن الحق سبحانه وتعالى يضع فى كتابه بعض الأشياء التى تشتبه بمثل هذا ليجرئ الكافرين بالقرآن أن يقولوا بها ، ثم يكرُّ أهل الرد عليها فتتبين حلاوة الآيات إن قورنت ببعضها ، وتدل على أنها لا يمكن أن تأخذ هذا الظاهر من التعارض وهذا الباطن من التوافق والتعانق إلا إذا كانت صادرة عن إله حكيم .

الآية تتعلق بخلق الأرض . . وآيات الإجمال فى القرآن كلها تنص على أن الله خلق السماوات والأرض فى ستة أيام .

وهذا يبين لنا أنهم أحصوا واستقرأوا ولكن آية فى القرآن قالوا عنها - قبحهم الله - إنها فضحت محمد .

هذه الآية هى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت : ٩] . ووضعوا تحت كلمة يومين خطين اثنين .

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ [فصلت : ١٠] ، وجعلوا تحت الأربعة أيام أربعة خطوط .

وبعد ذلك قال : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ . . . ۝ ﴾ [فصلت] ووضعوا تحت يومين خطين . قالوا : اقرأوا ، والذى لا يعرف يقرأ يرى الخطوط .

﴿ خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ ثـــم ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ اثنين وأربعة : تكون ستة ، ثم ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ : تكون ثمانية أيام . فيكون محمد قد سها عن أصل العدد .

فلما جمعنا هذه الأيام فى التفصيل وجدناها ثمانية أيام ، وكل آيات الإجمال أنها ست . فأى الآيات نُصدق يا محمد ؟

نقول لهم كما قلنا سابقًا قول الشاعر :

وإذا أراد اللهُ نَشْر فضيلةٍ طُوِيَتْ أتاح لها لسان حسود

نقول لهم : أيضًا أنتم لم تفهموا مُعطيات القرآن ؛ لأن القرآن نزل باللسان العربى الفصيح ، لا أقول : كل جملة لها مرامٍ ومعانٍ بل أقول : كل كلمة ؛ بل أقول : كل حرف .

فالحِسُّ العربى فى ذاته يستطيع أن يصل إلى المعلومة القرآنية التى جاء القرآن بلغته فيها .

ونحن كنا قد ضربنا مثلاً إلى أن الرجل العربى ساعة يقرأ ، يقرأ القرآن بملكته ، وساعة يقرأ القرآن بملكته ، يستطيع أن يضع اللفظ فى مكانه المناسب وإن لم يكن منقوطًا . كان القرآن أولاً غير منقوط .

يعنى تستوى نبرة الباء ، بنبرة النون ، بنبرة الياء ، بنبرة التاء ، بنبرة الثاء .

فتقرأ على كم نبرة هكذا ، أما تستطيع أن تقرأها باء ، وتستطيع أن تقرأها ياء . هذا إذا نظرت إلى التحت .

وتستطيع أن تقرأها نونا ، وتستطيع أن تقرأها تاء ، وتستطيع أن تقرأها ثاء .

« طاء » تستطيع أن تقرأها اثنين : « طاء » ، وتستطيع أن تقرأها « ظاء » .

الجيم والحاء والخاء : صورة واحدة ، ولكنها تختلف باختلاف النقط .

إذن . . لو أننا جئنا بكتاب يجمع القرآن غير منقوط ، ثم عرضناه على غير متمرس بالعربية لا يستطيع أن يقرأه .

إنما العربى المتمرس بالقراءة ؛ يقرأ القرآن ، ويهديه السياق إلى الكلمة ، هل هذه تُقرأ : باء ، أو تُقرأ : نونا ، أو تقرأ : تاء ، أو تقرأ : ثاء . مباشرة .

لما عرضوا القرآن غير المعجم - يعنى غير المنقوط - على حماد ماذا قال حماد ؟

قال : عذابى أُصيب به من أساء ؛ لم يُبعد ، لأنه لا يوجد ثلاث نقط ، فهى تقرأ أساء وأشاء . هى فى القرآن أشاء ، إنما هو قرأها لأنها ليست منقوطة « من أساء » . المعنى لم يبعد ، مما يدل على أن الملكة العربية تستطيع أن تقرأ اللفظ وإن لم يكن منقوطا بما يحكمه السياق القرآنى .

لكن كلمة « أساء » صحيح وإن أعطت المعنى إنما ليس كل مُسيء يصيبه الله بعذاب . لكن « أشاء » أدق ؛ لأنه قد يكون مسيئًا ولا يشاء الله أن يُعذبه .

إذن .. عندما تقول : « عذابى أُصيب به من أساء » فكأنك حكمت على كل مسيء بالعذاب .

إنما عندما تقرأ قوله تعالى : ﴿ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ﴾ [الأعراف : ١٥٦] قد يكون مسيئًا ولا أشاء تعذيبه لأنى قد قبلت توبته لأنى غفرت له .

وأيضا قرأ : ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [البقرة : ١٣٨] فماذا قال ؟ ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ﴾ قال : « صنعة الله » . فهى تقريبا المعنى يكون واحدا .

إذن .. فالقرآن على أنه أسلوب عربى يستطيع العربى بملكته وبسليقته أن يهتدى - إن لم يقع على المقصود - يقع قريبا من المقصود .

ولذلك كان يعرف الكاتب العربى من الكاتب غير العربى .. بماذا ؟

إن الكاتب غير العربى ينقط ويشكل ، إنما العربى يقول : أنا إن شكلت كتابى إلى المكتوب إليه فكأننى أسأت الظن به كأنه لن يقرأ إلا إذا شُكل ، لكن هذه ملكة .

ولذلك قلنا : إن كل الذين أملكوا فى الكتابة وفى العربية وفى كذا وكذا : من الأعاجم ؛ لأن العربى كان يستنكف أن يدون لغته ويعمل قواعد وكذا ، فهذه مسألة لا تحتاج إلى تدوين ولا إلى أى شيء .

فإذن نقول له : لو كان استقبل بالحس العربى وبالملكة العربية ، تعرف أن الآية ليس فيها تناقض .

إذا وجدت إجمالاً ، ثم وجدت تفصيلاً ، فكل تفصيل يحمل على الإجمال ، إلا إجمال العدد وتفصيله ، فإن مجمله هو الذى يحمل على مفصله .

المفصل يحمل على المجمل . . كيف ؟

لأن الأعداد يمكن بالتداخل أن يصل المفصل إلى المجمل ، إنما المجمل لا نقدر أن نفصله ليصل إلى المفصل . كيف ؟

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ ليس فيها كلام . ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا ﴾ جعل فى ماذا ؟ فى الأرض .

﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾ أقوات فى ماذا ؟ فى الأرض .

إذن . . ما يأتى فى كلمة أربعة أيام المخلوق ليس ابتداء شىء ولكن تتمة شىء . أن خلق الأرض ، ثم خلق ماذا ؟ ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا ﴾ ، فتكون تتمة لمن ؟ للأرض . ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾ ، للأرض أم لا ؟ فكأن الأربعة الأيام لم تتكلم عن إنشاء شىء جديد ؛ وإنما تكلمت عن إتمام شىء موجود .

الأربعة الأيام تتكلم فى الإتمام ، إذن الأربعة الأيام هى إتمام . فكأنه قال : إنه خلق الأرض فى يومين ، ثم جعل فيها رواسى من فوقها وقدر فيها أقواتها فى تمام ماذا ؟ التمام جُعل فى التمام .

كما تقول - أنا ضربت مثلاً مرة وقلت - أنا سرت من القاهرة إلى طنطا فى ساعة وإلى الإسكندرية فى ثلاث ساعات ، يعنى ليس من طنطا للإسكندرية ثلاث ساعات ، لا ، بل أيضا من القاهرة إلى الإسكندرية ثلاث ساعات فتكون داخلة فيها أم لا . تكون داخلة .

إذن . . الآيــة ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا

﴿ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا . . . ۝١٠ ﴾ كل هذه تتمة فى الأرض ﴿ فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ .

فيكون كأن الاثنين الأوليين دخلوا فى الأربعة . فإذن لا تحسب الاثنين مرتين ، أخذت الاثنين هناك وأدخلتهم فى التتمة هنا فيكون عندى فقط أربعة أيام . ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ ثم ضم الاثنين إلى الأربعة ولا تضم لهم الاثنين الأوليين ، فتكون المسألة فى ستة أم لا ؟

فيكون قد اتفقت آيات الإجمال مع آيات التفصيل ، وانتهى إشكال المسألة .

وأيضًا عرضوا قضية أخرى ، هذه القضية : أن القرآن يجيء محمدا بألفاظ تؤدى معانى ، ولا يفطن إلى وجه التداخل فيها .

مثل ماذا يا سيدى ؟

فهم يظنون أنهم سيفهمون الأسرار العربية أكثر من القوم الذين ملكتهم عربية ونزل عليهم القرآن ، وتحداهم القرآن ، تحدى ملكاتهم .

فلو كان فيه ما تقولون أنتم لَسَهُل على أصحاب الملكة أن يَردوا على محمد ، وقد بقوا كافرين بمحمد ومعارضين لمحمد ومعاندين .

فلو أن فيه خللاً فى البيان ؛ كانوا هم أولى باستنباط الخلل .

وكانوا قالوا : لا ، إنه يتحداكم ، هذا هو التناقض ، ومع ذلك أبقى الله كثيرًا من صناديد الأُمة كافرين حتى يقول إنهم شحذوا كل جهودهم للتحدى ، ومع ذلك لم يستدركوا على القرآن آية من الآيات .

ولو أن فيه ذلك لسهل عليهم أن يقولوا : يا أهل اللسان العربى ، يا أهل الملكة ، يا أهل الفصاحة ؛ انظروا إلى محمد الذى جاء يتحدى بالقرآن العرب ، كيف يوجد هذا التناقض . . . وهم الذين جاءوا اليوم برطانتهم يريدون أن يفهموه!!!

جاءوا فى قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟

أَنفُسَهُمْ ﴾ [آل عمران : ١٣٥] قالوا : أوَليس فعل الفاحشة ظُلم للنفس ، فكيف تأتى : ﴿ أَوْ ﴾ ؟

لو قال الذين فعلوا فاحشة ظلموا أنفسهم ، ويترتب عليهم ، فهم واحد .

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ﴾ [النساء : ١١٠] ، آية ثانية أيضًا .

يقولون : إن ﴿ أَوْ ﴾ هنا إما تعطى هذا أو تعطى هذا .

نقول : والله أنتم نظرتم إلى ﴿ أَوْ ﴾ على أنها ﴿ أَوْ ﴾ ليست : الإباحة أو ﴿ أَوْ ﴾ التخييرية . « خيِّر أبخ قسِّم بأو » . قواعد اللغة هكذا .

فمثلاً نقول : « تصدق بدرهم أو دينار » ، « جالس الحسن أو ابنه شريف » هل هذه إباحة أم تخيير ؟ التخيير لا يمكن أن يجتمع ، إما تأخذ هذا أو تأخذ هذا . . خذا هذا أو هذا .

إنما الإباحة : عندما أقول له : « جالس الحسن » فإن جالستهم الاثنين ماذا يحصل ؟ ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ أو الآية الأخرى ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

نقول له : أيضا لم تفهم المعطيات . . . . لماذا ؟

لأن الذى يفعل السيئة يحقق لنفسه متعة عاجلة . وذهل عن المتعة الآجلة ، إنما ساعة يلجأ الإنسان إلى المعصية فلا يحقق لنفسه متعة ، ويحقق لآخر متعة ، فلا يأخذ متعة المعصية فى ذاتها ، ولا يأخذ المتعة فى الآخرة .